رواية

قلبي علينا

علي مكيه

منهل القراء
عبدالقادر يحيى استانبولي

الطبعة الأولى...

قلبي علينا..

رواية

قلبي علينا..

تدقيق: أ. أمين استانبولي أباظة

ترجمة: أ. طارق السيد علي

كتابة وإخراج: د. علي مكيه

روايـة...

عن قصّة حقيقيّة حدثت على أرض بلادنا..

قلبي علينا..

الطبعة الأولى شباط / 2023

All right reserved.
جميع الحقوق محفوظة لأصحابها.

الإهداء...

إلى اللّواتي ما زلن يُحاولن النجاح رغم أنف الحياة،
استمرِرْن حتى يصفّق لَكُنّ العالم ويقول: ها هنّ قد وصلن...

وإلى اللّواتي نجحن رغم أنف الحياة، هاؤم صديقتكم...

علي مكيه

التقديــم..

لا لأجل العمر الذي مضى، بل لأجل العمر القادم..
مهما كان، وكيفما كان.. نحن هنا..

قارئي العزيز هذا هو التقديم كلّه.. الآن وإلى أن يأتيك الخبر العاجل أترك معك حَرير...

الكـاتـب

لو أنّك أتبعت رفضك، بسحب جلدي يا أبتِ على اسفلت هذا الشارع بطوله، حتى ما أبقيت منه إلّا أثرَ دمٍ تغسله السماء بغيثها..

وقصصت جذر عِنادي أنا ابنتك التي حلمتَ بها وصنعتها على ترتيب هواك لترتّب بها حياتك أكثر... ثم راحت تضرب الحلم برأسها حتى انفجر... انفجر الحلم يا أبتِ... وانفجر الرأس يا أبتِ.

"نحن الآباء لا تضعفنا إلّا رغبات بناتنا، لكنّني - بنيّتي- جرّبتُ اختصار الطريق، و ودّدتُ أن تلغي الكلمات لك إشارات مرورك ومطبّات العمر. إنّنا نرى ما لا تستطيعون أنتم رؤيته، أو توقّعه أو تفنيده.. ليست فقط هذه مشيئة الله، بل إنها الأيام إذ كبر حجم تراكمها علينا."

- لما كل هذا الإزرقاق عليك يا طبيبتي؟.
- علّمَ عليّ تمسّكي يا أبي؛ حتى أعاب جسدي.

سامحني؛ سامح تلك الصغيرة على الخطأ، لقد قُدِّرَ أن أولدَ من الخطأ بشكل مستحدث، أتراني مزرقّة؟ إن الازرقاق في قلبي أيضاً، هو تحت جلدي، تحت شغفي.. تحت إصراري..

لم أقم بأي شيء خاطئ؛ نفّذت ما ربّيت عليه، لكنّه المكان، والبداية التي كانت كلها رمّانة حلوة الشكل، فظيعة المذاق، كنت أنا حدّ السكّين معها.

"ادخلي.. تمددي على قلبي يا ابنتي، افترشيه مثل أول ليلة من ليالي كانون التي كنتِ فرحتي فيها، لكن تمددي اليوم بشعرك الأشقر القصير وعينيك الخضراوتين اللتين أحبُّ التأمل فيهما، ولعب الزهر معهما.. أضعفتِني، لأعقد اجتماعاً بيني وبين رحم أمك، علّني أستطيع إقناعه بإعادة إنجابك مرة ثانية."

عرفته؛ يوم كنت اسأل نفسي بعد عدة أحاديث مدرسيّةٍ، ودنيويةٍ، ما هو الحبُّ؟ الآن أسأل لماذا أرسلتني أمي لجلب الدواء؟ أما كان من أحد غيري، يذهب ليأتي بالدواء فيعود ومعه البلاء!.

اسمه؟ لا اسم له، هو الموت إذا شكّل نفسه، لكنّ معناه الحقيقي أن يكون في حلقك البلّة.. وإنه في حلقي على جدران بلعومي مذ وجدته و وجدني..

عمره؟ بضعة سنوات من الكذب... بضعة سنوات من النقص، بضعة سنوات من الاتّكال، بضعة سنوات من الانحطاط، تؤلّف بضعة سنوات من المعاناة، أُلقيت على أكتافي، ثم استبدلتني أنا وكلّ سنواتي.

عدت بفرحة لقاء المجهول، بيدي كيس دواء، أمشي لا بل أرقص بمشيتي؛ رقصة فتاة قد بلغت الخامسة عشر للتو، سألتْ نفسها ما هو الحب الذي تتحدثُ عنه الفتيات في الصف؟ وبعد قليل التقت به في الصيدلية، فزغردت، وانتشت بنظرته الغريبة إليها..

عدت من اللقاء إلى كتبي، أُخبرها عن شابٍّ وسيم حدّثني بضعة كلمات، ونظر إلي.. أهو الحب؟! عدت ألملم القواعد التي علّمتني إياها عائلتي، حيث يسكن الإخلاص شيَمنا، وتبدو أصولنا على ملامحنا.

وعيوني على الشارع الضّيق الطويل المحفوف بأجذاع أشجار عريضة، نمتْ حتى ظلّلتْ منتصفه تقريباً (إذا مشيت فيه سوف تسأل نفسك: ما هو الحب؟ فكيف بك وأنتَ تسكنه؟.) وبالقرب من شبّاك غرفتي الريفيّة حيث أرى زوايا الطريق كالغَيب، وقفت أراقب وجوده من عدمه، شعرت به خلفي أثناء رجوعي الراقص! ووجدته أيضاً أثناء مراقبتي..

الأهم من ذلك؛ أن أخترع طريقة أنقل فيها الخبر من كتبي إلى صديقاتي الجدد في صفّنا، بعدما عُرفت بينهنّ بأني فقط حَرير ذات الكتاب، و وضع اسمي في آخر قائمة الفتيات اللواتي أحببن أو عرفن الهوى..

من مراقبتي لمحيط منزلي وجدت الحلّ، فخرجت أقطف زهرة صغيرة من ملحق منزلنا؛ لأضعها في أحد الكتب وتبقى شاهدةً معي على الحادثة، حينها بدأتْ بينه وبين كتبي علاقة عشق...
لأنها أول من تلقّى نشوة الخبر وأول من شرب السر، وكانت هي أيضاً مذياعي المدرسي، كتاب حَرير ذو الوردة.

هكذا كانت أفكاري، بكل هذه السذاجة.. فليس من المعقول أن يمرّ الشاب من أمام بيتي بعد صدفتنا بقليل، دون دافع! لكن ما هو الدافع؟

وبتلك السرعة في التّنقل من فكرة إلى فكرة، من مزاج إلى مزاج، كنت في غرفتي أعيش، بين حزينةٍ ووحيدةٍ وكئيبةٍ وحبيبة وحالمة، عالم من خيالي أنا فيه وحدي بينما الجميع في الجوار يحدّث نفسه وأحلامه عني، عن الصغيرة الباقية لديهم دون شهادتها الثانوية.

في صباح اليوم التالي من أيام كانون البائسة، بائسة دوني بطبيعتها، فأنا صحوت لألقي التحية على أجمل صباحاتي، معلنة هزيمتي برسالةٍ قصيرة هي بالمدى فهي أقلُّ من أربعٍ وعشرين ساعة لكنها بالمعنى، يسرّني الاحتراق يا سيدي..

وبعد أن سمعتْ أمي صوت غنائي الصباحي الغريب! ذهبت لمدرستي بهدف مختلف عن العادة، وهو أن أخبر صديقاتي في الصف الجديد الذي وضعني فيه أبي عما حصل معي عصر الأمس، في الواقع لم أخبرهن؛ بل تركت كتابي المحتضن للوردة يقع من يدي، كي يكتشفنه؛ فعلاً اكتشفنه واكتشفن سره، وعند عودتي فهمتْ أمي كذلك، أن البريق بدأ يرتسم على وجهي، وببساطة شديدة؛ لا بدّ أنه هوى المراهقين.

دعنا نعترف؛ أن من أخطائنا البريئة في تلك الأيام، أمانينا بالكِبر، واقتحامنا للأشياء التي سمعنا عنها وما كنا على علم بها، لاهثين خلفَ أيّامٍ ورديّةٍ تخيّلناها فجعلتْ من أحلامنا نطاف حياتنا، وبقيت النطاف تسبح أكثر في رحم الدنيا ومجاريها، حتى تلتقي بالنطاف النظيرة...

اليوم أظنّ أنني كباقي فتيات بلادي، كنت سجينةَ وهمٍ على الأكثر، سجينة الشيء الذي باداني على هذا النحو للمرة الأولى في حياتي، بيد أن تلك الأيّام لن تنسى، لأنها نواتئ كلّ الأشياء من حلو ومرٍّ وسعي، وما تحقّق حلمي، حلمي الذي كوّنته أيضاً كسائر أولاد ذلك العمر.

أن أقف في ساحة القصر العدلي أتلفّت على أيمني تارةً وعلى أيسري تارةً أُخرى، متأفّفة لا أعرف ما يتوجب عليّ فعله، لكثرة ما يتوجب عليّ فعله، أن أصرخ مدافعةً وأضرب الطاولات بقبضتي... ربما هذا لا يعني أيّ شيءٍ لأيّ انسان غيري لكنّه حلمي، مثل مَن حلم بالفيزياء ظناً أنه سيصبح نيوتن، أو كما يبدأ الفتيان حياة قتالهم بلُعبهم المصنوعة على شكل أسلحة ويركضون في الحارات يدافعون عن شيءٍ ما...
حقيقي في مخيّلاتهم، حتى يشعرون بعد ذلك بقليل أنّهم مثل هتلر، رغم أنّهم لا يعرفون عنه إلا ما يمكن أن يصادفوه في المستقبل من الأسطر.

كبرت على يد أبي، جعلني تلك المرأة التي لطالما حلم بها، فتاة إذا احتضنتْها الذاكرة لا تقوى الذاكرة على الفكاك منها، جعلني في الثقافة والدّرس والنّقاش امرأة مرعبة، ربما أكون حبيبة خيالاته!
صنعني كما يصنعون أواني الفخار بتحويل أصلها الطيني إلى مادة صلبة لها طاقتها وقوتها، وفخرها الكبير بشكلها الذي يضيف أينما ذهب رونقاً بارزاً على المكان..

ثمّ أطلق لي عنان أجنحتي بلا أيّ قيودٍ على طيرانها أو حتّى لحمها، هو أيضاً الذي قام باستقبالي في مشهد عودتي المروّع من تجربة الموت.

إنّه يأتني بين الفكرة والفكرة، ذلك الحب الذي على هيئة بشري مثلي، محاولاً استباحة شبابيك منزلنا المحصّن..

فيجعل الأسئلة التي أقوم باستنباطها أو سماعها تتكاثر في عقلي، فأكثر ما قالته بنات صفي، ماذا فعلتما معاً؟. آهٍ يا أبَتِ؛ لقد مضى اليوم أكثر من سنوات عشر ولا أعرف لماذا غيّرت لي صديقاتي..

حقاً! أهناك أشياء علينا فعلها معاً؟ بدوتُ أمامهنّ كفتاة غشيمة الروح والجسد! الكثير من الأشياء لا أعرفها، لم يخطر في جوفي أن أقبّل أحداً، أو أعطيه يدي، أو أعانقه - كما قالت إحداهنّ- بالطبع أقصد الغرباء لا أبي ولا أمي..

مشى بي شعوري... محتلاً دواخل تلك الصغيرة التي أكونها، متمدداً كلّما دارت عقاربُ ساعةِ الحائط المعلّقة في غرفة جلوسنا، أنام وأعود للوعي على إحساسي اللذيذ بأنّي أنضج، إنّها من اللحظات المفصليّة والممتعة، تلك اللحظة التي تتحوّل فيها الفتاةُ لتصبحَ امرأةً لها رجُلها، ويمر رجلها عليها كما أسلفت بين الفكرة والفكرة التي لها أبوّة المصدر بعمقها وضخّها، يمرُّ من الشّارع ذاتِه حيث تسكن، ليس على سبيل المبالغة، لقد كنتُ أساعدُ بتحضيرِ الغداء لأجل زوجي!.

أيضاً؛ بدأت الهواتف بعملها، لتغدو الآذان الأربعة كمراكزَ صحيّةٍ تعالجُ الأرواح بالمجّان، صار يحدّثني كثيراً، صرتُ أفتقده واسأله لماذا؟ في حال أنّه لم يمر، لكن ما من أحد منّا قال "أحبك.." بشكل واضح، بقيت الكلمة مختبئةً خلفَ العيون، تحت الأحاديث هذا جعلَ اللعبة أكثر شهيّة، تشبه طبق طعام تتناول طعمته المميّزة على موسيقى هادئة، فتحوّلك طعمته من عادي إلى مدمن، الإيحاء والتضمين! وما شابهها، كانت كلمات السر..

أكناف الحب، أو الحب بذاته.. كلُّ الأشياءِ لكي تبدأ وتنتهي تحتاج إلى الحب، كلُّ الأمم التي قامت، قوّمها الحب، كلُّ الأساطير التي دخلت أسوار الخلود، دخلت عبر الحب، لا أريد التفلسف في ذلك، لكنني مقتنعة بأن الحبَّ هو محور هذا العالم.. ربما بحثك يثبت لك ذلك!.

تكبّري. تثاقلي. لا تكوني لقمة سائغة يصل فمه إليها بسهولة.
أوه، تعليمات كثيرة وإرشادات نحو الطريق، طغت على حالة الدرس التي اعتدت عليها في المدرسة، باتت تدفعني لأحاولَ التغلّبَ على نفسي وعليها في غرفتي الرّيفية المعتّقة بروائح التّاريخ والهدوء والرّياضيات وعلمِ الأحياء، وكلام صديقاتي اللواتي على ما يبدو لديهنّ التجربة، هذا ما عرفته من أحاديثهنّ خلالَ الأيام القليلة التي قضيتها معهنّ..

ولكن يلعبُ النّصحُ عندنا دوراً خطراً أحياناً، فهو كسيف الوقت.. والنّصيحة بغير وقتها مثلُ رصاصةٍ توجّه إليك؛ كلّما دقّت الثانية عشر معلنةً انتصاف ما تشعر به، عفواً؛ انتصاف الليل، فتقوم من نفسك تبحث عن موضع آخر رصاصة لتطيّب الجرح ببعض المطهّرات، وتعود محاولاً النوم على ألم حرقها، لكن لا بأس يسرّني أن أحترق يا عزيزي.

"Giving advice at the wrong time is like a bullet pointing at you…"

لأنه في ذلك العمر نتعرّف على احتراقنا من أجل الحب، كصورة مشرّفة هي أحد دواعي الافتخار بالنفس، خاصّة عندما نكون لأبوين قد تعمّقا في الآداب على اختلاف أنواعها، حيث أنهما يردّدان بعفوية تربوية جملاً رنّانة لها صدى.. نسمعها نحن في بادئ الأمر ثم تعجبنا فنحاول عيشها، وبعد ذلك نتعرف عليها بشكل أكثر واقعية، بعضها نمحوه تماماً وبعضها الآخر نحتفظ به إلى الأبد، أو إلى موعد تغيّرنا التالي، فمثلاً عندما كنت بعمر المدرسة والتقيت حبيبي في الصيدليّة، ما فكّرت بالحبِّ أبداً بل وصلت فوراً إلى أنّي قد شعرت بالحبِّ بينما أنا أتعرّفُ عليه وأسألُ نفسي عنه، ظننت أنه (قُذف في قلبي..) كتطبيق مثالي لجملةٍ سمعتُها من أصحاب الكلام الحياتي المقدس وهي: أن الله يقذفُ الحب في قلوبنا وليس علينا السؤال لماذا أحببنا!
وبالتالي، أصبحت سعيدة بما أعيشه من الحب، ومتأكدة من أنه حب، لا شكّ عندي!.

بعد دعوة أبي المنمّقة، دخلت إلى الغرفة، لأفترش قلب أبي أو إحدى الزوايا الفاخرة من غرفة الجلوس، الجميع ينظر إليّ بدهشة.. أبي، أمي، إخوتي، ماذا حصل لك أيتها الصغيرة؟ ما كنت أنا الصغيرة في هذا المشهد لأن هناك صغيرة أخرى على يدي هي ابنتي "جوى" آخر ما أعرفه أنني اقتربت من أكبر مقاعد الجلوس لأستلقي بمساعدة أخي، بينما كانت أختي تحمل "جوى" وتحاول إنهاء البكاء.. أمي تحدق بحقيبة سفر منفوخة البطن هي خاصّتي؛ تبدو كسيدة حبلى بلغ حملها خمسة وثلاثين اسبوعاً، ثم تحول عيونها علي لتسأل نفسها لماذا اصطحبت معها الحقيبة وكيف حملتها!؟ بالمناسبة أثناء حملي بابنتي "جوى" كنت أجمل سيدة حامل وما كان يصدق أحد أنني أوشكت على الولادة، إنهم يجيبون بسخرية دائماً؛ نتمنى لك السلامة.

أما أبي.. فرغم ذهوله، لم يستطع كتمانَ ما فيه من أوّل وهلة رآني فيها على الباب واقفة على ركبتي من شدّة تعبي..
بعد استلقائي بدأ يجرب الاتصال بأمير، أمير زوجي! أو حبيبي، هو الحبُّ الذي التقيته في الصيدلية.. عندما رقصت فرحاً، جعلني أرقص أيضاً لكن على طريقته وطريقة ذويه ومجتمعه، هو الموت الذي شكّل نفسه لأجلي، وهو تجربة الموت!
ست ساعات بقيت محاولات اتصال أبي على قيد حياتها، لكن دون الأوكسجين القادم من الطرف الآخر.

- لو أنّه يمتلك الجرأة للردّ على هاتفك يا أبي، ما تركني على الباب وحدي وأنا هكذا!.
- ماذا حدث بينكما يا حَرير؟.

بين المشهد الأول وهذا، عدة سنوات من الهوى، من أن تفقد نفسك وأنت حي! أن تخرج أنت منك أمام عينيك وتمضي ثم لا تستطيع العودة! أحدهم قام بقصّ الحبل الواصل بين بينك الأول وبينك الذي مضى..

بينهما أن تخرج أنت منك أمام عينيك لتذهب للقاءٍ ثم لا تعود، لا لأنك تعرّضت لشيء، بل لأن اللقاء أعجبك، فجلست على الوقت تثبّته، ومددت الأحرف حتى تتطاول ثواني الكلمات، ثم قمت إلى الهواء تجمعه لتأخذه كلّه في شهيق واحد وترفضه في زفير واحد، محاولاً جعل اللقاء شيئاً لا ينسَ، هكذا كنت في أوّل لقاء جمعنا معاً بعد الصيدلية، وفي الثاني...

خرجت بملابسي المدرسية من مدرستي إليه، و وقع خطواتي على الأرض وقع خطوات جندي خلفه انتصاره في معركة الأمس وأمامه معركة اليوم وبعدها لقاء روح، صدقْني لا أبالغ في الوصف، فللشوق أفعال تجرّ أيّ مرفوع، فوق أنف النحو المسالم.

في شوارع تلك الضيعة الصغيرة.. مررنا بمحاذاة صيدليّتها التي باتت تعنيني جداً. في بساتينها، في فلاها، خلف أشجارها، التقينا لنقطف معاً وردة أُخرى على هيئة وقت سرقناه من أعمارنا..

تلك اللحظات باقيةٌ في ذاكرتي إلى اليوم، إلى اليوم وأنا أذكرُ حيرتي عندما وقفت أمامه، وصدى كلام الفتيات الذي أحاطني رغمَ جهدِ عيوني في النّظر لوجهه.. كي لا يضيع منه أيُّ تفصيل.

كان وجهه أسمراً، طويل هو كطول سمار وجهه، وبراءة وجهي، لطيف هادئٌ بملابسَ عاديّةٍ جداً، ربما إذا صادفَتْه إحدى الصديقات لما التفتت إليه، لكنّه عندي هو الإجابة المباغتة لسؤالي الصغير؛ ما هو الحب؟

من الأفضل ألا تنظر إليه الفتيات عموماً، في لقائنا الأول، كنت دائمة الابتسام، بدا الابتسام كشيءٍ بديهيٍّ يظهر على وجهي دونما ترتيبات خاصّة فيه، لأنَّ الفرحة كانت في داخلي، وما صار على وجهي هو تلك النشوة الأنثوية الرقيقة التي قام بإضافتها ربما عن غير قصد أو حتى بلا علم له بأنه قد أضافها.

فقط أمي كانت تلاحظ كلَّ شيء، ما كنت أعرفُ أنَّ الأمهات تلاحظُ رغم انبهارنا بقدراتنا على الكتمان في وقت كهذا من العمر، أنهنّ أيضاً يشعرن بنشوة فظيعة عندما يشاهدن بناتهنّ على قيد حب، إنّ ما يبدو على أجسادنا وتفاصيلنا ظلٌّ يراه الأغيار فيفهمون منه ما يجري.

"Only my mom noticed everything…"

لقاؤنا الثاني أخذ وقتاً لا بأس به، لكنّنا كنّا على تواصلٍ شبه دائمٍ في هذا الوقت هذه الجزئية خدّمتها التكنولوجيا...

وهو يشبه الجزء الآتي قبلَ برد الشتاء القارس، كذلك الجزء الواصل قبل تعرّق الصيف القسري، تلك الأجزاء التي نعيشها بمتعة عالية المستوى، حين نقف في وجه الريح اللطيفة ونمد الأذرع بشكل موازٍ للأرض على الجانبين.. فاتحين صدورنا..

الغزل؟ لطالما أمطرني به رغم أني كنت فتاة عادية حينها على ما أظن، وفي كوخ ضيعتنا المخصّص للبيتزا.. التقينا ثانية، طبعاً كنت أعيش على شيء أعلم اليوم أنّه يدعى بالتعلّق، وأحاول التمسّك بقواعد عائلتي التي وبشكل ما لا تمنعني من رفقة أحد الشبّان..
بينما وعلى النقيض؛ ينتمي هو لمحيط متحفّظ جداً، فقد أتى لصيدلية ضيعتنا من إحدى مجاوراتها، لا بأس، يسرني الاحتراق.

لم أتذوق في حياتي بعد لقائنا الثاني بيتزا بطعم العناق، هل جرّبت البيتزا بطعم عِناق؟ أخبَرني حينها أنه انتقل إلى السنة الثانية في معهد اللغة الفرنسية! كخبرٍ عادي في سياق الأحاديث التي كنا نتبادلها معاً، كانت ليلةً عاديّةً بالنسبة له لكنّها لي ليست كذلك..

"Have you tried the hug pizza…?"

عدتُ إلى غرفتي الريفية الأنيقة، أخذتُ موقعي على فراشي أسترجع لحظاتِ اجتماعي به، ربما مرّ الشريط أمامَ عيوني أكثر من مئة مرّة..

بل مرّ على لساني لأتذوقه كأي كأس نبيذ..، تمرُّ لحظاتنا الجميلة بسرعة رصاصةً تطلقها لنا الأيام، حتى رؤوسنا لا تستطيع اللحاق بها إذا استدارت، لكن نعيشُ على أثرها لوقتٍ ليس بالقصير ونحنُ نسترجعها لنولّد منها لحظاتٍ جميلةً أخرى..، مثل نجاحٍ صنعناه أصبح في الماضي، لكنّه يلعب دورَ بعض الدوافع لصناعة نجاح جديد...، هكذا ننتقل من شيء إلى آخر.

عانقني في لقائنا الثاني، حينما كان العِناق عندي يمثّل الحب بشكله الكامل وهو ذروة ما يمكن لعاشق بلوغه قبل أن يرحل، تقدم إلي وأخذني مني، أغلقت عيوني ويسراي تضم عنقه بشكلٍ كاملٍ بينما ألقيت الأخرى بأظافرها الناعمة على ظهره، شممتُ عطرَ رجلٍ غير أبي للمرة الأولى، عانقني ولم أقاوم، ثم لم أقاوم بعده أيّ لحظة تضع رأسي أو جزءاً منه على كتفه وتسمح لشعري الطويل أن يكون على مقربةٍ من صدره.

بينما ظلَّ أبي يسألُني عمّا حدث، وأنا مستلقيةٌ لا أقوى على الكلام، أحياناً يكون الحدث أكبر من أي جملة نستطيع نحن بنو البشر قولها أو صناعتها أو ترتيبها، لكنّ صورنا يمكن أن تتحدث، أجسادنا، ألواننا...، أشياء كثيرة يمكن أن تتحدّث يا أبي.

***

أنا ابنة مجتمع متحرّر لا قيود فيه.. ولا تُنبّه فيه الفتيات إلى ضرورةِ استخدام ملابسَ معيّنةً مثلاً، أو التصرف بطريقة معيّنة مع الأغيار، وهذا ليس سيئاً كما ينظرُ إليه البعض..، فلكلٍّ منا طريقته بالتربية والعيش، وعلينا احترامها..

بدأت صديقاتي بالتعرف على حبيبي...، حبيبي؟ نعم... لأنَّ الحب بعد عدة لقاءات بدأ يظهر علينا أكثر، صارت قلوبنا أكثر جرأة بالاعتراف، هنّ اللواتي بدأن ينبّهنني بطرق عديدة إلى الاختلاف الذي بيني وبين أمير.

لكنّ ذلك ما غيّر في داخلي أي شيء، لا يمكن للصغار توقّع آثار الاختلاف على المدى الطويل، خاصّة في خطوات التعلّق؛ لذلك بقيت كما أنا على صعيد التعلّق، وبدأت ككلِّ أقراني بالتحضّر لفترة الثانوية، التي تحدد في بلادنا مصير العمر اللاحق..

كتبت على ورقة هذا الرقم (٢٣٧) ووضعتها على طاولة دراستي التي بدأت تدريجياً بالعودة إليها بعيد زمن من الإهمال التام، طامحة لأكون حَرير ذات الكتاب كما كنت، مع كوني أيضاً حَرير صاحبة الكتاب ذي الوردة.

استمرَّ أمير بوجوده، كنتُ أستمدُّ منه طاقتي، وأفرغها في دراستي، ونلتقي عندما تسمح لنا الظروف بلقاء، تكررت لقاءاتنا في كوخ البيتزا، كما مشينا في شوارع ضيعتي لأنّي لا أغادرها إلا بصحبة عائلتي..

وفي ذلك الوقت.. كانت أمي قد تأكّدت من ظهور الحب في حياتي.. وبدأت تحاول استيعاب ابنتها الصغيرة كي لا توجّه لها صفعة تربية تصوّر لها الحب كشيء مخيف يُمنَع الاقتراب منه، فتذهب إليه وحدها دونما أي إرشاد يذكر في عمر دقيق جداً من تكويننا.

- تبدو ملابسكِ لائقة عليك جداً.
- أأحببتها؟.

كنت أرتدي الكثير من الملابس التي تُظهر أكتافي، بعض أنوثتي بلا تحديد لمواطنها، والرحيق على ثغري بدا أخّاذاً، يمر الأسبوع تلوَ الآخر، أنضج أكثر، كما أتألّق... خاصة في ظل نقاشات أبي الضخمة والعميقة والمستمرّة، خلال البدايات في مدرستي الثّانوية صار اسمي، أو لقبي "حَرير ذات الكتاب." على لسان المدرّسين والمدرّسات... الآن لدي حب وسُمعة دراسية مبهرة..

حلمي، غرفتي، محبّة إخوتي، حضن أمي، لمسات أبي على داخلي.. أمير المثالي، الصديقات بدأن يحببنني أكثر، يا له من عالم رائع! من هنا انطلقتُ لتحقيق هدفي المكتوب على الورقة آنفة الذكر.

لكنّها أحاديثهن كانت مستمرّة، الآن أسمع بهدوء أكثر لكن دون محاولات توجيه مباشر منهن، فكّرت مثلاً بالقبلة... بلمس الشفاه للشفاه وما يعنيه من فعلٍ أو إحساس، لكنَّ عناقنا كان كلَّ الأشياء التي حصلت... لم أضع رأسي على أكتافه ولم يحاول معي في ذلك.

أخذ مشهد عودتي لمنزلنا مدىً أكثر، عندما أخبر أمير أبي أنه قادم إلينا بصحبة والده الذي يكون عمي بلا قرابة لأبتِ... حدث ذلك في اليوم التالي لعودتي وتركي أمام الباب، وكنت قد استطعت لملمة بعض قوّتي، ظننت أن الموقف سوف يتغير وسيكون وجود العمِّ في مصلحتي كزوجة، فهو ليس ابن العشرينيات أو الثلاثينيات...

بالتأكيد سيعاملني كابنته! لكنّ الحقيقة لم تكن كذلك، فوجئت بدايةً بغضب عمّي، ثم إلقاء العتابات علينا..

رُميتْ عليّ تهماً كثيرة وصفات لم أوضع فيها من قبل، كأن أكون من وجهة نظره قليلة أدب أو لا حياء بي! إنها من الجمل الصادمة جداً، لكن أبي رد عليه بقسوة جملةِ "إننا هكذا يا أبا أمير، وأنتم تعرفوننا جيداً." لقد تمالك نفسه بشكل رهيب..

مع ذلك قمت من وجعي لأحضر لأمير بعض الأشياء كي نجلس على ما يسمونها في السياسة طاولة الحوار، أعرف من والدي أن لكل زوجين طاولة حوار يلجآن إليها في الأوقات العصيبة، كان يقول لي في الماضي، أن امرأة غير أمي لا يمكنها تحمّله لذلك يحبها ويجلّها كثيراً.. بالفعل جلست للتحدث مع أمير، كأنّما لا شيء قد حدث بيننا! وليتني لم أفعل.

"I know from my father that every couple has a conversation table that they turn to in difficult times…"

استمرّت أيّامُ الثانوية في تقدمها، حتى أنهيت العام الأول وأنا في طليعة زميلاتي، بعض الأوقات تجمعني بأمير، بعضها الآخر عبر التواصل الإلكتروني والتحدث عبر الهاتف فقط، بدا لي مذهلاً، شابٌّ في مقتبل العمر يحاول العمل والدرس معاً، ويحبني!

لقد أصبح يقولها لي كلَّ يوم.. وتنزلُ في أرفع مقامٍ تملكه روحي.. لتفتح شهيتي أنا وجسدي وتألّقي، في المدرسة بدأت أعرف جسدي أكثر بفضل اللواتي يعلمنني خفايا تضاريسي الأنثوية وما يمكنها أن تفعل بي، أو ما يمكنني أن أفعل بها، يا له من تكوين غريب.. لا أعرفُ كيف كنّ يعرفن كلَّ تلك المعلومات!

لكنّ الصغيرات إذا أحببنَ فعلاً وتحديداً خلال حبّهن الأول، تجعلهنّ كلمة "أحبّكِ." خلال ثوانٍ فقط، في ما بعد الاستمناء، تلك الكلمة كانت تفتعل بي ما يقوم به لتر كحول يؤخذ ببلعة واحدة.

في العشق.. إن لم يفعل بك ما يشابه ذلك، في تعبيره الدقيق أو في القلب، فأنت حتماً لست في ذروة الهوى أو قد نزلت عنها، ولن يقنعك العشق أنَّ بوسع أحدهم الطيران فوق العمر حتى لمس الغيوم، فقط لأنه يحب.

مضت الأيّام معي، وأنا أتناول الكتب والتفكير بنهمٍ غريب، أصبحت رفيق أبي، تعلّمت النرد و ورق الشدّة، وصولاً إلى مشارف الثالث الثانوي، عندها أصبحت علاقتي بأمير أكثر سطحية، أعرف اليوم أنّها كانت تعاني بعض البرود لكن حينها كانت القصّة قصّة تحوّلٍ لتوجيه اهتمامي المتفرّق نحو الدرس فقط.

فعلت ذلك وبدأت رحلتي الطويلة مع ما ندعوه نحن "البكالوريا.." في تلك الأيام بدأ الإرهابُ يأكلُ بلادي من جلده وأحشائه، ونحن في دخولٍ مستمرٍّ بأحد أظلم الأنفاق التي مرّت فيه دولةٌ عربيةٌ بكلِّ ما تحتويه..

فقررَّ العزيز أمير الالتحاق بمن يدافعون عن الوطن... كانت هذه صدمةً كبيرة بالنسبة لي، عادةً لا تمرُّ هذه السنة بسهولة على أحد لا بدَّ من صدمةٍ ما على اختلاف أنواع الصّدمات طبعاً، ورغمَ كلِّ الخوفِ الّذي زرعه قرارُ أمير في داخلي، رأيتُ فيه شجاعةً كبيرة... يا له من رجل!

عموماً؛ لم تنجح كلُّ محاولاتي بثنيه عن قراره، إذاً سيذهب إلى خدمة العَلم، إنه واجبُ كلِّ من يعيشون تحت العلم من الشباب والشابات، أمّا أمير فأراد التطوّع، لكنّها عندي فكرة مرعبة لأنّه ربما لا يعود لا سمح الله..! لكن هكذا كانت الأحوال في ذلك الوقت.

في الصراع، تصير الخيارات محدودة جداً ومتناقضة بنسبة مئة في المئة مثل النجاح أو الفشل، مثل أن تتخطّى أو تقف.
إنك توشك على الانتهاء لكنّك تقبّل جبين انتهائك.. تعود، ولا تنتهي...

يأخذك الخوف إلى الشك؛ ومنه توضع الساعات تحت وهم كبير، أكبر مني ومنك ومن لياليا، ثم لا يؤنس لياليا تلك إلا السماء، ومن واحدة إلى أُخرى حين لا تستطيع النوم ولا تكون على الوعي؛ (إنّها من أكثر ما نواجه في حيواتنا صعوبة) تصنعُ قرارك بنفسك فإما أن تحيا أو أن تموت.
قد أصبحتُ أنا على هذا الترتيب، بين حبيبي المجنّد وبين كتبي التي بتّ أتجنّد لها.

"You are about to finish, but you kiss the forehead of your end and come back, never ending..."

ماذا بعد؟.
ذهب العزيز إلى خدمته متطوعاً كما أسلفت، تاركاً بي بصمةً إيجابيّة جميلة، إنّنا نتأثر بالنّاس دوماً خاصّة الأعزاء منهم ذوي قرب الروح، تلك الشجاعة التي أشعر نفسي بها حفّزتني كثيراً فذهبت أنا أيضاً إلى رقمي المسجّل (مئتان وسبع وثلاثون علامة..) أحاربُ في معركةٍ أُخرى تشبه معركة بلادي التي اختطفت قلب حبيبي كما قال، وكعادتها الأيّام استمرت تتدحرج بنا، كنت أشتاقه بين الدرس والدرس، أطمئن عليه ثم أشتاق... يُكثر في غيابه فيلعب بي القلق كدمية خالية مما سواه، ثم يرجع إليّ صوته وبالطبع ما عدنا نلتقي كالسابق.
صار هذا روتيني الخاص، فبعد بعض الوقت أصبحت أشتاق وأطمئن وأقلق بشكلٍ عاديٍّ هادئ، واختفى تأثير ذلك على درسي الذي تابعته برغبة شديدة.
أوه... بدأت أبالغ بالكتمان.

"Ooh... I'm starting to exaggerate the secret..."

لا شيء كان على ما يرام! كنت مثل بالونٍ محاطٍ بعشرة أصابعَ جميعها تمارسُ الضّغط عليه في ذات الوقت، أو كما تكون أنت كبشري تسمع هموم جميع الأصدقاء أثناء صعوبة دخول الهواء إليك وخروجه منك، وفوق اختناقك تقوم إلى الناس تنادي فيهم؛ "هل من أحدٍ يريد الفضفضة.".

صار حقدي بازديادٍ في كلِّ دقيقة تمر ثوانيها، على كلِّ الأشياء التي حجزتني عن أمير مثلَ الكتب والمستقبل والمسافات والسّفر والتوجيه، حتى غرفتي، ومدرستي.

كنت أقنعُ نفسي فقط بأنَّ عليَّ القراءة، لا الحفظ والتّمرين كي أخفّف الضغط الهائل الذي أشعر به، فأجلسُ خلفَ طاولتي، ابدأ بقراءة أوّل كلمة وأنتهي من القراءة عندما أنهي الكلمة الأولى، كأنني جلست لأقرأ حرماني.

الآن أذكر كل تلك المشاهد، تمر أمامي واحداً تلو الآخر، تنتابني القشعريرة عندما أتذكّرُ قدراتنا البشريّة في التحمّل، إننا على الأغلب نكون على اتصالٍ مباشر بالسماء عندئذ، علينا أنْ نحمد الله كثيراً.. كثيراً جداً.

"I get goosebumps when I remember our human endurance capabilities, that we are most likely to be in direct contact with the sky then…"

لا أعرف كيف مررتْ!.
أحمد الله تبارك وتعالى على تلك الأيام، لأنّها جعلتني في مقطعٍ محدَّدٍ بغاية الدّقة من حياتي ومقطع محدّدٍ لها، أكبرُ بسرعة، والكبر دفعني لتجاوزِ تلك الصعوبات...

بعضنا عندما يكونُ بحالةٍ شديدةٍ من التوتّر المستمر يعملُ دماغه على تسجيل كلِّ شيء، كما يعمل هذا الحاسوب الآن بتسجيل الكلمات التي أكتبها والقيام بحفظها بشكلٍ سريع آمن، يا لها من طريقة!. لذلك كل ما كنت أشاهده أو أسمعه أو حتى ما أقرأه؛ أصبح يعلق في ذاكرتي، هذا السرُّ الإلهي بالشكل والمضمون صنع المعجزة، أو ما أكنّيها بالمعجزة.

أتذكُرْ؛ عندما كتبت لك أنني كنتُ أساعدُ أمّي في المطبخ وكأنني أحضر الطّعامَ لزوجي؛ دون مبالغة؟ أيضاً حينما كنتُ أعيشُ امتحانَ حياتي معه، وأيضاً دون مبالغة، فكّرت كيف بوسع فتاة في عمري أن تبثّ القوة في حبيبها أو أن تقف معه، تسانده فيما يحمل، لا أملكُ خبرةً سابقة لذا بدأت أراقبُ أمي عن كثب، ساعدني قربُها التي صنعتْه هي لاحتوائي، وصرت معها أكثر استفساراً عمّا قامت به مع أبتِ حتى وصل لحبّ ملخصٍ بجملة واحدة لا تغادر منطقه.. "لا أحد سواها يستطيع تحمّلي."...

تعلّمتُ من أمي أشياءَ كثيرةً عندما راقبتُها وسمعت أجوبتها، تلك الأشياءُ جعلتني أكثر تركيزاً، أكثر إرادةً ومعرفةً لما أريده حقاً.
لكنّني اليوم أفهمُ تماماً أنّ الهوى لا علاقةَ له بتلك الشّعاراتِ التي صنعتها في مخيّلتي الصغيرة عديمة الخبرة، وليست الحياة كما تصوّرتها أو على الأقل كما أردتها وفهمتها، هناك حلقاتٌ مفقودةٌ تجعلُنا نبحثُ عنها رغماً عنا مهما بلغنا في السعادة والهدوء والنجاح.

لا أعرفُ ما الحكمة من أن نُخلق صغاراً بكلِّ شيء؛ ونكبر أليس من الأفضل أن نخلقَ كباراً ثم نصغر! فتختم الحياة بجماليّةٍ أكثر..
لكن من أين نأتي ببطونٍ تسعُ أحجامنا، تبدو المسألةُ معقّدةً بالنسبةِ لنا لكن ليست كذلك بالنسبة لله دامت نعمته.. إن شاءها حصلتْ..

أتدري يا عزيزي؟ والله إنّك لا تدري.
أحببتك لدرجة أنني جعلت كلَّ حياتي تحتَ خدمتك، كل وقتي، وأفعالي بغيابك وحضورك، قد قلبت حضرتُك موازيني..

كما تقلبُ ساعة يدك الساذجة الغبية الشريكة لمعصمك، كلما حرّكت مقود السيّارة، أو فتحت صنبور ماء، أو أمسكت كأسك لتشرب، وخاتمي الذي لبسته، لا أعرف لماذا قدمته لك؛ ثم جلست أضرب وجهي غيرةً وحسداً، أين هذا منك الآن؟.

"Where is this from you now?."

ويجبُ أن أعترف؛ أنّي لطالما ظهرتُ ببلاهة، بينما كانت رائحة نهودي تتغيّر، ويأخذ كلّ منهما استقلاله عن الآخر ثم يتضاربان عند المفترق أيضاً غيرةً وحسداً إذا أخذت أنت واحداً على محمل النظر وتركت الثاني في مكانه على المرمر بلا خطر.

أتدري؛ أصبحتُ قاسيةً حدّ العدم، لقد تغيّرت بعدك جداً، أصبحت أكثر تقبلاً، صرت أترك الرّاحل لرحيله، والمشغول لأشغاله، والحزين لأحزانه، حتى الطعام لأصحابه، وأمضي بلا أيّ تأنيب ضمير، أو جلوس بكاء، بل أينما أجلس أنا؛ يصيرُ المكانُ مكاني، أصبحت قاسيةً حدّ العدم.

"After you I have changed so much, wherever I sit; The place becomes my place, I became cruel to the point of nothingness..."

***

هكذا تداولاً بعد تداول، سارت التفاصيل كلّها بشكلٍ هو جيد بمفهومه العام؛ لكنّ فيه الكثير من التفاصيل المتوارية، فمثلاً صرت أعرف أكثر عن صديقاتي في المدرسة، اقتربت منهن جميعاً لكن بتوازن..

لدينا نحن الإناث عالم غريب من الأسرار ليس عن الحب فقط، فالحبّ برز كإحدى العادات هناك بيننا، وأما الليل فقد حرّك خيالاتي المتخصّصة بعبثٍ بوضع أمير تحت الخطر؛ بل أكثر من ذلك في المقطع الأخير من كلِّ ليلة كنت أستذكر كلَّ الأخبار التي سمعتها طوال النهار من هنا وهناك، كذلك الحديث الذي دار بيني وبين أستاذي في الفواصل...

أستاذي في مادّة الرياضيات.. كان أكثر من مجرّد أستاذ عاديٍ يلقي المعلومات إلى طلابه ويمضي ليعود مختبراً إيّاهم في الموعد اللاحق، لقد كان أيضاً أهمَّ أصدقائي، أحبُّ تلك الروح اللطيفة المريحة التي تنشر السعادة أينما حلّت، أمير من أصحاب تلك الروح؛ أذكر عندما رأيته داخل الصيدلية وأذكر جيداً حديثه مع الصيدلي منذ دخولي، ضحكاتهم المتبادلة جعلتني أبتسم.

كذلك روح الأستاذ بعد جلسات عديدة، أصبح أستاذي هو الوحيد الذي يعرف القصّة كاملةً، لا يمكن لك أن تخفي هواك عن الجميع، إنّها الفرحة، التي تتكلم عنك كذلك الإرهاق والتشتّت، أتدري كل الأشياء إذا مرّ عليها الهوى تصير تتحدث.

"Do you know if passion passes over all things, they start talking…"

اقتربت أكثر فأكثر باتجاه موعد امتحاني الثانوي، تحسنتُ دراسياً بطريقة غريبة، يبدو أنّ إحساسي بالمسؤولية قد أفادني، حيث الناس تزرع بنا الأمل، لكن ليس وحده؛ بل أساتذتي وأستاذي على وجه التحديد، وبعض النصائح المتفرّقة والتنظيم، حتى أمير لعب دوره قبل أن يغيب..

كل تلك الأيام، الحماسة والتراخي، الركض للّحاق بموعد الدرس، الأكل والأحلام والنوم والتفكير، وانتظاري الطويل لأمير كي يكلّمني ولو لدقيقةٍ من قلب معارك وصفوها آنذاك في أخبار البلد بأنها معارك ضارية..

الأيام أصبحت من الذكريات... الذكريات! إحدى الكلمات التي تحتاجُ لتأمّلٍ من نوع خاص، يكون بحجمها، وأذنين مغلقتين تتفادى سماع صوت أقدام مدوٍّ قادم من هناك؛ يطيح بالدماغ، إن لم تقم دعساتُ الذّكريات بتحطيمه قبل أصواتها..

يبدو أننا نحتفظُ بالسّم، عندما نبالغ بالاحتفاظ بذكرياتنا، من الممتع أن نحظى بذاكرة تسجّل أو لا تسجل، حسبَ ما نختاره، فتتوقّف عن التسجيل عند الغياب حيث أننا لا يمكن لنا العيش دونه أو دون فراق، من أبسط ما تقوم عليه الحياة تولّد أجنّة الغياب والفراق..
بدوت صديقة جيدة لأستاذي! هذا من مخلّفات نقاشات أبي العميقة.

"It seems that we keep poison when we exaggerate on keeping our memories..."

عادت لي همّتي لأصلحَ ما أفسده الجانبُ السلبيُّ للحب، هل للحب سلبية؟ بالتأكيد، على الأرض العراك مستمرٌّ دائماً، وصار الرّكضُ ليس فقط للّحاق بموعدِ الدّرس بل أيضاً لتعويض ما فات..

وفي آذار، قبل الموعد المرتقب بمئة يوم تقريباً؛ بعد أن صنعت مملكة محصّنة بشكل رهيب من المعلومات، صنع لي أمير؛ قصر خوف كبير وزرعه في وسط مملكتي بغيابه لسبعة أيام متواصلة! أين أنتَ يا أمير؟!

ببداية أسبوع الغياب هذا، بدا الغياب شيئاً طبيعياً لأنّه يرتبطُ بالظروف والأمكنة التي يتجوّل فيها أمير حسبَ مهامّه كجندي، لكن مع مرور الوقت أصبحت على قلق أكبر، لم يكن الأمر بهذه السهولة التي أذكره عليها الآن..

كان الليل عنّي يسألني؛ ولطالما كنت أجيبه عن سؤاله بسؤالي عن أمير، ثم أغفو على انتظاري لجرعة غزل تعيد لي حيويّة تفاصيلي البتول؛ لكنّ انتظاري لم ينته بنهاية اليوم السابع..

بل أثار الغياب بلل وجنتي، ثم ظهرت نتوءات شوق على ملامح فتاة صغيرة لمّا تتعلّم بعد كيف تتصرف مع روحها إذا اشتاقت، كنت أحتاج لشيء ما؛ أعرفه جيداً لكن الحصول عليه ليس بيدي، فأصبحت أحتاج لشيء ما لا أعرفه، وهذا ضيق مقيت جداً...

أخبرني الأستاذ أنّي حصلت على الإجابة الخاطئة لسؤالي؛ ما هو الحب؟. فالحبُّ هو ما بعد البداية، أو ما بعد بعد بعد البداية، كلّ ما حصل بيني وبين أمير هو مجرد بداية... يا إلهي! أليس العناق حبّاً؟.
لكنّنا نؤمن بما يقوله لنا أساتذتنا إيماناً كاملاً، كأنهم يقولون قواعد حياة علينا اتباعها قبل التفكير فيها.

"My God! Isn't hugging love...?"

على تلك الوتيرة مضت بعض الأيام؛ إن لم تخن ذاكرتي فقد أخذ غياب أمير حوالي العشرين يوماً، خلالها حدث أيضاً انقطاعنا كطالبات الثانوي لأجل امتحاننا، هكذا كانت العادة في بلادي، ثم قطعها اتصال هاتفي مباغت أثناء إحدى جلسات مادة الرياضيات الخاصّة..

رنّ هاتفي...! رقم غريب على شاشته، وبالطبع لم أجب لكن مع إصرار المتصل طلب مني الاستاذ الصديق الرّد عليه، لربّما يحمل شيئاً مهما، خاصّة وهو على علم بغياب أمير.

- مرحباً؛ حَرير؟.
- نعم؛ من أنت؟.
- أنا أحمد؛ رفيق أمير.

كنت متأهبة تماماً لسماع خبر وفاته، متأهبة أنا مذ حاولت إقناعه بالاستغناء عن قراره، لكنه أبى، بالرّغم من أن ذلك لا يبدو أخلاقياً! لأن الدفاع عن أرضنا واجبنا جميعاً، لكنّ أمير على صغري؛ قد كان آنذاك وطني.

"It was my country at the time…"

لماذا لم يكلمني أمير؟ ذهب صوتي؛ وشحب وجهي، وعيون أستاذي عليّ استلقتْ.

- استشهد!؟.
- لا، لكنّه أصيب، وقد جاؤوا به إلى مشفى المدينة.
- استشهد أمير؟.
- لا لا لم يستشهد لكن إصابته بليغة.
- أنت هناك؟.
- نعم.

أغلق أحمد الهاتف طالباً مني زيارة أمير، أيُطلب منّا نحن العاشقات أن نزور الحب؟ والله إنّنا نذهب إليه ولو على أقدامٍ حافية.

"Are we, lovers, required to visit love? By God, we go to Him even on bare feet…?"

وضعت هاتفي فوق أرقام دفتري وبكيتُ أمام دهشة أستاذي.. كان الدّمع يسيلُ بلا صوت، بضعة ثوان حتى سألني أين هو؟ إنه في مشفى المدينة. هيّا نذهب إليه!
حقاً بعض الأساتذة آباء؛ لكن من نوع مميّز أكثر راحة.

لم أبتعد عن الطاولة إلا خطوة وأُخرى، استدرت إليه أسأله؛ ماذا عن أهلي؟.

- لا تقلقي.

نزلت إلى سيّارته بسرعة، تأخّر عني قليلاً ثم طمئنني عندما صعدنا إليها بأنه اتصل بوالدي وأخبره أننا سنأخذ وقتاً أطول من المعتاد.

الطريق إلى أمير، ليس بعيداً، عيوني على الطريق، ومعي كلّ فساتين مخيّلتي البيضاء، تساؤلات الليل وحواراته، وكلام أمير وتفصيله وحركاته، ما نسيت أيّا منها أبداً، وما فقدت إلا جزءاً بسيطاً منه.

لا أريد الإطالة في وصف ذلك الوقت وتأثيره عليّ، لأنه ككأس شراب مُرّ الطعم مَرَّ أو يمرُّ على حياتنا كلّنا في توقيتٍ ما...
كنت أنظر من نافذة سيارة أستاذي فقط ؛ للأسفل قليلاً، أركّزُ في سرعة مرور كلّ الجماد المحيط بنا؛ من أشجارٍ مزروعةٍ وأحجارٍ مرميّة على قارعةِ الطّريق متخيّلةً مشاهد كثيرة من بينها أن أصل وأشاهد أمير... مغطّىً بشرشفٍ أبيضَ من قدميه وحتى رأسه.
الشكرُ للسماء؛ فهذا لم يحصل..

ولكنّ إصابته بليغة؛ والأصحُّ أنّ إصاباته بليغة، خراطيم ممدّدة معلّقة على جسده المستور، أجهزةٌ وأصوات هذا جهاز تخطيط قلب، أعرفه لأنني مررتُ على بعض المعلومات في كتابِ علم الأحياء، سيروم مغذٍّ، أحمد، وحبال أمساد ربطتني بمحيطي تلك الغرفة فقط بعض الدقائق وهو بلا أي ردّ فعل أو أي كلام أو حراك...

كنتُ صامتة، استدرت وخرجت من باب الغرفة كما دخلتها، وحدي، بلا أمير وبلا حب، ولا مشاهد في خيالي ولا أحاديث دارت بيني وبين نفسي.. أذكر أنني لم أستخدم المصعد.. بل نزلتُ على الأدراج المنتظمة مشياً وقفزاً خلال بعضها..

بسرعة توجهت إلى سيّارة أستاذي العزيز الذي أصرّ على انتظاري ليعيدني من قلب المدينة رغمَ أنه أخجلني لكنّه بدا مريحاً..
وبالطبع بقي وجهي على حاله، لا دم تحته، جلستُ في الكرسيِّ المجاور له كما جئتُ ولكن جعلتُ رأسي على مسند الكرسي..
سألني أيضاً عن أمير، وأجبتُ باختصار أنه قد أصيب أكثر من إصابة، وباحتوائه الكبير عدنا.

لم تكن المرة الأولى التي أزور فيها مشفى؛ فقد زرته سابقاً أثناء انهيار شيخوخة جدي، لكنها المرة الأولى التي أزور فيها المشفى وحدي..

في البيت بكيت... بكيت بشكل هستيري مروّع؛ كأن أكون قد تُركت على كوكب الأرض وحدي ورحل كلُّ شيء..

"I cried horribly hysterically; As if I was left on earth alone and everything is gone…"

ثم خلعت عن روحي ثوب صِغري وكنت كلّما اقتربت من شيء بادٍ أمامي اختفى...، أنزلت عن جسدي ملابسه وعلى صدري تمدّدتُ فوق فراشي، أحفرُ حفرة لرأسي تحت الوسادة كي لا يسمع أنيني، وبكيت...، بكيت حتى لا أعلم ما جرى إلّا عندما رأيت صفار الشمس حولي بعيني الذّابلة ووجهي السّقيم المحاط بعشب لا أعرف كيف نبتْ.. أستطيع اليوم استيعاب أنّ الألم في الليلة تلك؛ فضّ بكّارة عمري.. كفيلٍ أراد من نملة إنجاب ابنٍ له ففجّر جسدها حتى صار أشلاء متناثرة حول جثتها غير الموجودة، وحوّل مجرى حياتها إلى الأبد..

قمت من سريري إلى طاولتي؛ وقام العمر معي مثل خيوط دخان رقيقة أعلنت انتهاء احتراق غرفتي، جلست أحقن المستجدّات في كتبي.. وأسحب منها الأسطرَ بكلامها وأرقامها وفواصلها، أضعها في الوريد.. وما خرجت بعد عدة أيام إلا لأغسل نفسي..

ليالٍ عديدة مضت على هذا الحال؛ للصدمات تأثير على كلِّ شيء لكنّه إيجابيٌّ أحياناً... حتى سأل عني أستاذي وطلب من أبي أن أذهب إليه. أستاذي الذي قال لي عندما عدنا من المشفى وقبل مغادرتي سيارته، حينما هممت بوضع قدمي اليمنى خارجها: "هنا الحب... هذا هو الحب" لكنني خرجت دون رد.

وكنتُ كلّما تذكّرتُ صورةَ أمير المصاب أذهب إلى كواليس عالمٍ غريبٍ ومجهول..، أصبح الغضب منه ينتابني أكثر، مثلما أتألّم لأجله؛ بل أكثر حتى من الألم، يبدو أنّ العيش في هذا العالم يحتاج لمتطلبات كثيرة لا أملك منها إلا أقلّها، وددت حينذاك نبش القبور لأسأل السابقين كيف عاشوا؟.

أستاذي؛ لعب دوراً مهماً رغم دهشته من ردود أفعالي وما فعلته منذ تركته حتى استجبت لطلبه من أبي، استطاع إنهاء ما أدهشه وبدأنا معاً العودة للدرس التي صُممت على مدة ساعتين فيه خلال كلّ يوم، الدّرسُ الأوّل لم يكن في الحساب بل كان في الحياة..
ولكن حين فهمَ أنّ غيابي لم يؤثّر على درسي، صُدم... وقال ممازحاً إياي؛ أظن أنني الذي أحتاج لنصحك دكتورة حَرير.

- دكتورة حَرير؟.
- نعم. ما المشكلة؟.
- ما فكرت يوماً بالدخول إلى الطب!.
- لماذا إذاً ال ٢٣٧ علامة التي تريدينها؟.
- لا أعرف بالضبط؛ لكنني فكرت بالعلامة التامة ثم تراجعت قليلاً. وقف تراجعي على ذاك الرقم فكتبته.
- ماذا تريدين بعده؟.
- الحقوق... أشعر أن المحاماة تناسبني.
- غريب.
- ما الغريب؟. لماذا لا نبدو أكثر تكاملاً، فنأتي بمحصلة عالية ثم نختار!.
- هذه فكرة مقنعة يا حَرير.. استمرّي.

إننا في ذلك العمر نحتاج لمن يقف على توجيهنا وتشجيعنا، حتى ولو كان واحدنا جميلاً أو قوياً أو ذكياً.. أو كلّ ذلك، لا أقصد أن نكون في عيون أهلنا بل أن نكون بشكلٍ حقيقيّ، في كلّ الأحوال أولئك الذين وقفوا ذاك الوقوف يوماً سوف يبقى ذكراهم في داخلنا إلى الأبد..

أصبحت أفضل نعم هكذا؛ ربما للوقت دورٌ يلعبه، أحياناً يكون التحسّن بسيطاً لكن يتوجّب ذكره كي يندفع أكثر ونندفع نحن معه..

وأما أمير فقد داومت على زيارته كما فعلت على كتبي ودروسي، تحديداً الرّياضيات، لأنّ استاذي ضخ بي كمّاً هائلاً من المعلومات خلال السّاعة الأولى لأستغل الباقي في زيارة الحب، وأحمد سهّل عليّ ذلك..

اليوم وعلى عكس ذلك الزمن أدرك أن وجودي كان مهماً، فقد مدّ أمير بالقوة وجعله يبتسم، تحسّن هو الآخر من عدة نواح لكنّه منع من المشي والإجهاد لشهور عدة.. خلالها كنت في المرحلة الأصعب من حياتي، ولا أظن يا صديقي بأنك لم تمرّ من تلك المرحلة في حياتك.

أمي أصبحت أيضاً على علم كامل بتلك القصة قبل أسبوع من انتهاء ثانويتي، رأتني في أوّل أيّامي بعدما عرفتُ بإصابة أمير؛ خلفَ طاولتي أذاكر وأذرفُ الدّمع في آنٍ واحد، لم أتخيّل ذلك الهدوء الذي كانت تعاملني عليه، لا أعرف لماذا نخاف من إظهار مشاعرنا أمام جيل الآباء، ولكن سمعت من صديقاتي في المدرسة أنهن يتعرّضن للتوبيخ كثيراً إذ ما فعلوا..

أذكر جيداً كلَّ تلك الليالي بتفاصيلها، بأرقامها وتواريخها..
أشبِه العدائين الذين ركضوا في سباق مع الوقت، أحدهم نجح بالوصول أولاً... أما الباقون خرجوا من السباق خاسرين لأنهم قورنوا فقط بمن وصل أولاً، من البديهيات أن يصل أحدهم أولاً! لكن ما جدوى المقارنات؟.

"What is the point of comparisons…?"

مجدداً فقدت صديقاتي، والسبب هذه المرة كان ذلك الوصول، لا أقصد بالفقدان معنى الفقدان الأكثر شمولاً للحياة والألم؛ ولكن أنوّه على الابتعاد وعلى التغيير الذي حصل بيننا وآثار البُعد ممّا يخلّفه في النّفوس، ولأنّي أكتبُ ذلك بعد مضيّ وقتٍ طويلٍ أدّعي أنّه فقدان أو على الأقل...

أصبحت أعرفه بهذا التعبير، آنذاك فكّرتُ به وظننت أنّها الظروف، على كلِّ حالٍ لم نكن أصدقاء بحق..

ما ظهر لي قبلَ ذلك أنّ الغيرة تفرّقُ الصّديقات أيضاً ولا يرتبطُ وجودها بالغرام! ولا بأنّ الحسد يمكنه إنهاء حياة إنسانٍ أو يفقده الشّغف، لم أفكّر أبداً أنّ نقيض المحبة يعيشُ معنا بالفعل، ولا أنّ الأديانُ السّماوية تفرّقُ البشر أو الانتماء لطائفةٍ معيّنةٍ يبرّر القتل، تحديداً هذه كانت بدايات الحرب على بلادنا؛ بينما لم نُربَّ نحن على ذلك أبداً وما كنّا نتساءل؛ لمن ينتمي هذا البشري؟ بل على العكس كانت بيوتنا مفتوحةً لأيِّ طارقٍ أو سائلٍ أو مشرّد، لم نحرم الآخرين من أماننا وثقتنا ولم نُحرم منهم أيضاً... لو كان الانتماء إنساناً لبصق في وجوه الكثير من الناس..

"It seemed to me before that that jealousy separates friends..."

هذه مفاهيم معقدة جداً كسهلٍ ممتنع، لكنّها الحياة، ليس صعباً علينا الاحتفال كلٌّ على طريقته بتفاصيله وتضاريسه ثم يجمعنا احتساء فنجان قهوة على طاولة بريئة...
بيد أنّ العمر يمضي، بينما تبرحُ الجراحُ مكانها.. والصّدمات كذلك، في حين تبقى أوقاتُنا الصّعبة المدعوّة أو الموصوفة بعنق الزّجاجةِ في أعماق الذاكرة ويبقى لنا جدولُ الأحزان اليومي الذي نقومُ به منفّذين أوامرَ الروتين.

نجحت أنا ونجح معي رقمي، هذا لا يمتّ بصلةٍ لحبكة روائيّة متخيّلة، بل هذه هي الحقيقة، كتبت الرقم لأصنع منه هدف، وسعيت نحوه كما أسعى للماء على عطش أو للفرحة على حزن..

نجح رقمي...! جمعت مئتين وسبع وثلاثين علامة لكن بعدما أصبحت مئتين وسبع وثلاثين قطعة..! ثم تناثرتُ لعددٍ يفوقُ هذا العدد بكثير من الآهات التي استصرختها بكلّي...

من المسودّات التي صارت في كلِّ مكانٍ حولي.. من المعلومات التي كانت تعيشُ بي وتدورُ في عقلي ومخيّلتي كصورةِ أميرٍ وأخباره وما استطعت تقديمه من الاعتناء به..

تلك كانت المرّة الأولى التي أتذوّقُ خلالها لذّة النجاح الواقعيّة، كأن أكون قد جمعت نفسي لأرميني في الفرح، الجميع افتخر، أبي كاد يبكي أو بكى، وجلست أمّي جلوسَ الأميرات بين الجموع، ضمّتني أختي كثيراً، نلتُ مرتبة الشّرف في منزلي ومدرستي، ومرتبة القُبل من أخي.. ومرتبة العناق من أمير لكن بالمستوى الأقل عن ذي قبل..

دخل فرحٌ مدفوعُ الثّمن إلى بيتنا، وكان لي حظّ الدّفع والاعتزاز به، حظّ كوني التي دفعتْ، وبدأتْ ترقص تألقاً بين أولئك الرّاقصين، منهم بحسد ومنهم ببهجة، المباركون في الإنجاز باركوا بطرقٍ غريبة ومختلفة بذاتِها وبمعانيها، ورقصوا معي أولئك الذين لا يعرفوا بالثمن، أو كيف كان المرور.

لكنّي أشهدتُهم على العصبيّة المفرطة والمزاج المتقلّب السّيء للغاية، على الخوفِ الذي عاشني وقتاً طويلاً، على الحزن بدون كشفِ أسبابِه المتعددة، والسقوطِ المتكرّر فوقَ ذكرى أمان مفقودٍ، تبدو الكواليس مختلفة جداً.

"But I testified to them of excessive nervousness and a very bad moody mood... of the fear that had lived with me for a long time, and of sadness without revealing its many causes. And the repeated fall over the memory of a lost safety... The scenes look very different…"

أما أمير؛ فقد فرح بي وضمّني بينما هو في عناء المبيت المرضي، عناقه هذه المرة كان مختلفاً عمّا سبق؛ أحسستُ أنَّ تفاصيلَ وجهه قد تغيّرت بعدما وضع ذقنه على كتفي وأصبحت ملتصقة بصدره، بصراحة لم أشعر بفرحته! بل كان هو غصّة تلك الأيام.

***

في المرحلة التالية من أفراح تلك الأيام.. أصبحت الأسئلة المشابهة لسؤال استاذي عمّا أريده بعد نجاحي؛ أساسَ كلَّ الحوارات والأحاديث المشتركة، حتى أنّ البعض صارَ ينسى سؤالي عني، لكن لا بأس، لأن أجوبتي كانت محدّدة، فلم أتردّد عندما سألني العم حسين صديق أبي وصاحب الدكّان الكبيرة في ضيعتنا؛ ما هو حلمك يا ابنتي؟.

- الحقوق.
- ما شاء الله؛ صغيرتنا كبرت وأصبحت تريد الدفاع عنا.

كان ردّه طيباً وهذا جيد لكنه لا يحدث دائماً، على العكس أجوبتي أثارت الدهشة والاستغراب، والبعض صرخ من هول المفاجئة!.

لقد فكّروا بالمنطق؛ فمن يحصل على رقم كهذا في ختام الثانوية يجبُ ألّا يضيّع الفرصة، هذهِ الأرقامُ في بلادي تحدّدُ مصيرَ كلِّ العمر فيما بعد الثامنة عشر، المهندسون رجّحوا لي كفّة الهندسة، والأساتذة حاولوا إقناعي باتباع خطى رسالتهم النبيلة، وهكذا كلٌّ جرّ حياتي إلى حياته! بينما كانَ أبي يفكّرُ أيضاً بالمنطق وأنا أفكّر بالحلم..

حسب ما فهمته حتى تلك المرحلة؛ وحتى اليوم أيضاً، لا تعاش الحياة بمنطق، حتّى إذا كان الحدثُ منطقيّاً ستشعرُ تجاهه بأنّه ليس كذلك، ولا تعاشُ أيضاً دونه، لكنّني حينها كنتُ مثلَ بركةِ ماءٍ صغيرةٍ ترمى فيها النّصائح فتفتعل على سطحها بضعةُ أمواجٍ صغيرة متردّدةٌ تُخلق وتسير وتختفي! حتّى شعرت بالخطر في زعزعةِ الشعور واهتزاز الحلم..

تلك الفترة لم تكن أقلَّ بأساً من سابقتها أو بالضبط من أيام الامتحان، وعند أبي ما يقوله، وقد قاله لي قبلَ الحسم بقليل؛ بنيّتي؛ ليس تسير الأيام على الأحلام، بل تخلق الأحلام من رحم الأيّام وتدافُعها، ولا أحاولُ التّقليل من الحقوقيين؛ لكن فكّري مليّاً بالغد.

اقترحَ عليَّ السّفرَ بعيداً عن ريفنا؛ في البداية ظننتُ أنّ أمّي قد أخبرَته عن أمير ففكّر في إبعادي لكن سرعان ما خابَ ظنّي، ولله الحمدُ أنّه قد خاب..

أمام انجرافِ الجميع نحوَ إجهاضِ حلمي كان الخنوع يسيطرُ عليّ بشكلٍ متزايد، وبدت فكرةُ أبي مقنعةً أكثر لأنَّ انتقالي إلى مكانٍ أبعد سوفَ يحميني من تدهورِ ظروفِ مناطقنا الأمنيّة، وأردف لي أنّهم في الغالب سيلحقون بي..

التّنازل عن حلمي كانَ صعباً فأنا فتاة لا يُقالُ لها؛ لا.. بغضِّ النّظر عن قائله، لذلك بدأت أبحثُ عن طريقةٍ أقفُ فيها على رؤوسِ أصابعي وأتوازن. نحن الفتيات؛ نؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ اختيارات الأبوّة لنا هي الأصح تحديداً في مراحلنا المبكّرة المملوءة بالمشاعر، إن صادفتَ في حياتك العكس فاعلم أنَّ هناك؛ ما قد تغيّر أو أنّك أمامَ حالة خاصّة.

أشغلني نجاحي عن أمير؛ لكنّه استمرَّ بالتحسّنِ تدريجيّاً، وطبعاً استمرّت زياراتي له بعد ذلك ولكن على نحوٍ أقلَّ لأنّي فقدت أغلبَ أسباب الخروج لوقتٍ طويلٍ كافٍ للوصول إليه والعودة منه، وكنتُ أحياناً أستغلُّ زياراتي تلك بالتعرّف على عالمِ الطّبِ وهو الخيارُ الأوّلُ المنسوب لأبي، الذي استمرَّ أيضاً بتنسيقي تنسيقَ امرأةٍ يحبّها هو..

آنذاك؛ شعرتُ بوحدةٍ غريبة، تأخذني القشعريرةُ كلّما تذكّرت ذلك، كانت المرّة الأولى التي أنتبهُ فيها من أنَّ وجودَ الناسِ وضجيجهم لا علاقةَ له بوحدة الإنسان.

في لحظةٍ من اللحظاتِ التي لا تنسى كنتُ أمام القرار وحدي في كوخ البيتزا نفسه، أخبر نفسي أنّ عليّ اتخاذ القرار وتحمل مسؤولياته، تلك اللحظة هي أحدُ وجوه الحياة المختلفة، مختلفة حتى في موعد لقائها مع الناس، أو بين الأخوة.. يعود ذلك إلى الآباء..

تلك اللحظة، هي مراهنة على النجاح أو الفشل، وهذه مراهنات كبيرة بطبيعتها...
لا أعرف حتى اليوم من هم الناس الأكفاء الذين يستطيعون الدّخول إليها بقلب ثابت لا يرتجف، لكن ندخلها جميعاً كأمر واقع فرضته جهة ما، علينا التعامل معه فحسب رغم ارتجاف قلوبنا.

لجأتُ لأمير أو إلى طيف أمير؛ أمير الذي تصرّف بغرابة مذ نجحت والتاليات، لجأت بداية عبر الصيدلية والطريق.. ثم كوخ البيتزا والفراش، والبكاء والأغنيات، ثم أمير بشخصه الحقيقي الكامل، رحت أسأله عن حيرتي، عن اختياري وما يمكنني فعله.
وطبعاً وجدته يستقبلني بحفاوة كبيرة، ويسمع شكواي كلمة ثم كلمة، ويهدّئ من روع أكتافي، يا له من نوم عميق.. هههه! لكن في الحقيقة ليتني لم أذهب إليه!

لم أجد حينها أيّة إجابة شافية، أو حتى اكتراث يشعرني أنني حَرير أمير.. أن تذهب بشغف المراهقين لتلتقي الحبّ فتلتقي بشغف حبيب مسنّ.. بقي منه طقم أسنان مستعمل فقط..

والآن يحدث معي ما حدث لشخصٍ كتب تاريخاً على ورقة ثم بحلق فيه بشدة فقام من لحظة واقعه يركضُ إلى تاريخه القديم، تاريخِ الاندفاع والسعادة والسذاجة.. تاريخ حبيبه السّابق.. عندما كان العمر يشير إلى الهوى بسعادةٍ وشقاوة وألق..
تبقى البدايات في داخلنا حتى بعد أن ننتهي.

"The beginnings remain inside us even after we are finished…"

حتّى لا أطيل عليكم، عبر مشاورات كثيرة حصلت، مال عقلي للقبول بفكرة أبي، السّفر إلى العاصمة ودراسة الطب هناك، فوضعت الطب كأوّل رغبة أريدها وبالطبع كان القبول مضموناً، فبدأت أتحضّر لذلك.. وألتقي بمن داخل هذه الكتب درسوا أو مارسوا أو يمارسون...

لم يكن الأمر بتلك الصعوبة، لأنّي لم أشعر بالفراق فإمكانية العودة متاحة في كلِّ وقت حتى أمير، ببروده المستمر شجّعني، وأصدقاء أبي هناك بانتظارنا حسب ما أخبرني به الوالد.

بينما كان أحمد يلازم أمير كأهله؛ ويعاود الاتصال بين وقت وآخر، متابعاً كلَّ شيء عن كثب، في أحد حواراتنا المقتضبة قال لي؛ بأنني يجب أن أقف بجانب أمير، لا أعرف لماذا تقال الجمل الكبيرة للصغار الذين لا يستطيعون استيعاب مداها في لحظتها.

سوف تعرف يوماً ما؛ أنّ التعلّق الذي تعيشه له ثمن، وكلُّ شيءٍ كصدري وصدرك يعلو وينخفض على تنفس، ويسير يسير حتى الموت، وكلّما مررت بتعلّق تصير أقوى وأشهى وأسرع سقوطاً في فخّه وأسرع نهوضاً منه، هذا ما أعرفه اليوم من تجاربي المتعددة التي بدأت في الصيدلية ولم تنتهِ مذ تلك البداية، ولكن في تلك الأيام، استطاع تظاهري خداع الجميع دونما استثناء، وأنا على جبهات روحي؛ كجيشٍ وحيدٍ يقاتل الدنيا، أسير أشيّع جثث الأجزاء المتوفية مني في الليل...! وأطمئن على الضرائح، ثم أعود عند الفجر لأقودَ الأجزاء الحيّة إلى وفي المعركة.

لم نعد كما كنا، كيف تريد أن أقولها لك؟ بأيِّ اللغات تودّ قراءتها؟ بأي الأصوات تريد سماعها؟ بأي قسوة تريد رؤيتها؟ وكيف تريد أن أترجمها لتفهم معناها؟ لم نعد كما كنا، هكذا بكلِّ صراحة؛ بكلِّ اقتدار.

"We are no longer what we used to be, How do you want me to tell you…?"

عندما نمرُّ في تلك الممرات نتغيّر، تغيّرنا الممرات الحياتية المظلمة؛ حين تبترُ الأقدام وتبقى جثثنا مرابطةً في مكانها، حين تضربُ مراكز تنظيم الحرارة ويصير البردُ تحت الجلد..

قبلَ مغادرتي.. غادرني أمير إلى بيته؛ بعدَ رحلةٍ طويلةٍ في أروقة العناية الصحيّة والمشددّة أحياناً، وما استطعت رؤيته؛ مذ عاد إليه.. تحسّن بالفعل؛ ولكن فقد عينه، أو فقد أمل عودتها! حتى أنا سمعتُ الخبر ورأيته لكن لمّا أستوعب فكرةَ أنّ البهيّ الجميل أمير سوف يفقد عينه... فكيف يستطيع هو تقبّل الفكرة؟!

بقي ممنوعاً من المشي وهذا أحد المبررات في أننا لم نلتق، كان جسده قد تشظّى بالكامل، حتى الجمجمة على مقربة من الدماغ! حتى الروح أيضاً قبل وبعد نجاح استئصال الطحال..

أما نفسياً؛ فقد بدا منتهياً تماماً.. إصاباته البليغة قضت على أشياء كثيرة فيه كحلاوة وجهه، ضحكاته العفويّة السّمراء؛ ضخامة بنيته وهمّته وقدراته.. تحوّل إلى شبه إنسان نافدٍ من الموت ونافدٍ من الحياة أيضاً.. إصاباته قضت على أشياء كثيرة بي؛ مثل بهجتي بوجود حبّي.. وعناقنا..

"He turned into a resemblance to a human being, running out of death and also running out of life…?"

اليوم أفهم أنّ التغيّر على اختلاف أسبابه من طبائع الحياة، لا ثبات هنا، ولا أبدية إلّا للسماء وما فوقها.. نحن نعلم أنّ الأشياء المخلوقة في الدنيا خاصّتنا تتغير؛ ونحن أيضاً نتغيّر، لكننا نفاجئ بالتغيير، في موقفٍ عربيٍّ دائمٍ وغريب.. رغم كوننا أحد أسباب التغيير نفاجئ بالتغيير..!

وحينما يصبحُ ملموساً مجسداً في الواقع؛ نعود ركضاً، محاولين استرجاع ما كنّا عليه، يصبحُ اللومُ من العادات، يكثرُ الكلام كما لو أنّنا جمعنا ألفَ مذياع معاً... يشتدُّ العتاب؛ تلقى التهم من كلِّ حدبٍ وصوب.. وبعدَ قليلٍ تختفي معالمُ الجاني والمجني عليه فتختلطُ الأمورُ وتختلطُ الشّخصيّات..

هذا ما فعلته مع أمير حينئذ، حاولتُ تقديمَ كلَّ ما أستطيع.. جرّبتُ مساعدتَه كثيراً؛ ليكونَ جيّداً.. أو ليعودَ جيداً.. لكنّني فشلت؛ لأنّه عاشَ تلك الفترةَ بتأزّمٍ كبير! كنتُ صغيرةً على ذاك الصراع المدمي وعندما بدأ استسلامي لفشلي ولفكرة أبي؛ بإبعادي عن روحه، عادت رغبته بي كما كانت في الصيدلية..! وهذا ما فعله أمير معي عندما أحسّ بالبُعد.

لكنني غادرت وأنا على علمٍ بأنّي لن أنامَ بعدَ ذلك؛ فقد تحوّلَ النومُ لإحدى عاداتي القديمة وما عرفت أني على موعدٍ مع عراكٍ جديدٍ يخاصمني فيه، السّبيل لاسترجاعِ نفسي، وفي الطريق الطّويل دعوتُ السّماء بدمعٍ كثيف ترقرق على خدي، دعوتها أن تكونَ معي ومع حبيبي، أن تكون بالقرب منّا، تحيطُ بنا وبأرواحنا.

"But I left knowing that I would never sleep after that…"

حينها جرّبت أشياءَ مختلفةً كلَّ الاختلاف عمّا جرّبتُه في حياتي.. مثل ذاك البردِ الذي ذكرتُه من قبل، كانت دمائي باردةً لا جلدي، مثل مراقبة السرعة التي يمضي بها الشارع والأشجار والأحجار من حولنا إلى الخلف، عندما نحدّقُ بهم من خلفِ النوافذِ المنطلقة بسرعة مئة كم/س، مثل محاولات التقاط ذرات الأوكسجين من الهواء، أوليس الحب هو أوكسجين؟.

بالطبع؛ البدايةُ كانت صعبة، لكنّها على الدّوام صعبة، هذا ما عشته؛ هذا أيضاً ما سمعتُه مراراً، فعندما انتقلت إلى الإعداديّة قيلت تلك الجملة لي، وعندما انتقلتُ إلى الثانوية قيلت لي، وآنذاك أيضاً قيلت لي! هي جملة حقيقيّة يبرهنها اعتياد البشر وقدراتهم في التعايش..

هنا؛ أعداد هائلة من البشر..، يأتون ويذهبون من كلّ مكان وإلى كلّ مكان، حتى تكادَ أقدامهم تتعثّر ببعضها في مساحات كبيرة، وبحالات متعددّة تعبّر عنها الوجوه، والملابس المتنوّعة التي تغطّي الأجسادَ بكاملِها أو أقلَّ تغطيةً.. إنّ هذه هي المرّة الأولى التي أتابع فيها مشهداً كهذا..
كان أبي على حق؛ عندما قال إن العاصمة مختلفة جداً عن ضيعتنا الصغيرة؛ لكن كيف يعيش هؤلاء في مثل هذا الزّحام؟!. لا يمكنُ الإجابةُ على هكذا سؤال، لأنّنا نراهم لكن لا نستطيعُ اقتحام عقولهم؛ نسمعُهم لكن لا يمكنُ للأصوات دائماً شرح رسائل الأصوات...

دعك من تواصلِ أمير الصّامت في كلِّ الوقت السّابق ذكره، واطمئناني عنه ساعة بساعة، ودعك أيضاً من صعوبة البدايات المشابهة لبدايتي وغربتها لأنّي وعلى الرّغمِ من اندهاشي؛ شعرتُ أنَّ الحياةَ تفتحُ لي أبوابَها، ذاك الشّعورُ كان شرارةَ تغيّري وتبلوري.

كنت قاسيةً يا أبتِ، بعظمة العزيمة، وأهميّة الهمم، لأنّكَ علّمتني أنَّ البدايات تحتاجُ للعزم والهمّة، كنتُ قاسية يا حبيبي، لأنَّ أسلوبَ الأحذية العسكريّة في التمسّك عندما نشعرُ بالفقدان تحديداً، يجعلنا كبشريّين نريدُ النجاة، كنتُ قاسيةً مثل العدم! مثل الفارق بين الطفولة والشباب، مثل الأيّام إذ ترتدي الثوب الخطأ، كانت الوجوه أمامي قطع صوّان لا لين عليها ولا لين في مستقبلها..

فللحقيقة جزءُ ألمٍ تفرضه على الواقع، والحقيقة هي أنك ستبكي، ويعمّ الضعف فيك عندما تنظر آخر نظرة لأمك وأنت تغادرها على علم بأنّك في الغد لن تنظر إليها.. كما حصل معي ومع أمي..

الحقيقة هي أنّك ستشربُ من كأسِ الفراق مهما حاولت الهرب منه، حتى تصبح تشربها وأنت متمدّدٌ في لحظات البقاء..

الحقيقة هي أنّك لن تشعر بأهميّة الآخرين، وأهميّة الأمكنة، وأهمية اللحظات التافهة، والقبول والرّفض، والتفاصيل المفصّلة إلا عندما تغادرها أو تغادرك.. ولن تعرف قيمة الأمان الذي كنت عليه إلا عندما تتوقف الدنيا بطريقة ما عن منحك إياه.

هذا كان حالي مع الحب.. وكان حال الحبِّ معي أيضاً.. انتثرنا على المسافات، وافترقنا بها... الوقتُ الصّعب بقي يمرُّ.. أنا أتأقلم أكثر وأطمح أن أكون أكبر.. وأمير يحاولُ جاهداً ألّا يفارقَ هاتفي كما أفعل في الاطمئنان عنه لحظةً بلحظة ومواساته وحبّه... بينما صار حلمي على ضفاف موت من صناعة أصابع الواقع والمنطق والخبرات..

بدأت أتناول أبسط وجبات خبرات الحياة في مكان موحش على مقربة من جامعتي داخل قلب حياتي العاصميّة الجديدة، غادر أبي عائداً إلى بيته وبقيتْ حَرير في صلب مواجهة الأيام. يومئذ؛ بدأ الحديث عني يشتد، الفتاةُ التي غادرت غروراً وطمعاً، ما عادت ضيعتها الصغيرة التي ترعرعت فيها تعجبها..

إننا مصابون بحُمّى الكلام، وعلّة التخمين... وقد كنتُ مراراً محورَ الهمسات والأحاديث والأسئلة! منذ ذاك الوقت حينما بدأت حياتي الجامعية وقبّلت جبين حلمي على أملِ العودة، وحتى اليوم لم أنتهِ!

لكنَّ الحقيقة كانت أيضاً مختلفة! فأنا الموصوفة بعدم الطّاعة لأمّي بالتمرد والتكبّر، كنتُ فقط مجرّد قطّة ضائعة بين أبواب القاعات الدراسية وأرقامها وأسمائها الرنّانة، أحاولُ فكّ طلاسمِ العمر بين أولئك القوم الأكثر غرابة على الإطلاق.

بعد تلك البداية بشهرٍ واحد مرّ تحت اهتمام أصدقاء أبي وتواصلهم ودعمهم لي.. بالضبط عندما بدأتُ أشعرُ بالثبات أكثر؛ وأنتصر على ضياع نفسي مني، على نحو أكبر.. حينما حفظت مداخل الكليّة ومخارجها، وصار عندي بعض الأصدقاء والابتسامات.. بعد تلك البداية فوجئت بمفاجئة غريبة لا أعرفُ ما هي حكمة توقيتها!.

ولكن في ذلك الوقت، أو دعني أقولُ الآن، الآن أعرف من خلال سنواتنا الصعبة التي مررنا بها مع بلادنا.. بأنّه علينا توخي الحذر حتى أثناء الفرح أو الإنجاز.. وهذا ما لم أقم بفعله لأنّي لم أكن على علمٍ به آنذاك...

ماذا حدث؟ أخبرني أمير بأن إصاباته التي شلّت حركته لفترة طويلة أثّرت أيضاً على جسده كرجل، وأنه بدأ برحلة علاج مع طبيب مختص، بالتزامن للعلاج النفسي الذي بدأ يحصل عليه أيضاً بعد تأزّم كبير قد حدث..

في العموم هذان أمران مخجلان بالنسبة لمجتمعاتنا، كلّ شيء يرتبط بهما بطريقة غريبة!. وعدت مجدداً إلى الحب.. أقفُ بجانبه وأمسح عن جبينه التعب، أوليس هذا من جزئيات الحب؟.

احتملت عبئ السّفر ومخاوفه وخطورته أثناءَ تلك الأحداث.. لأكون بجانب أمير المتأثر جداً بالأمرين السابق ذكرهما.. لكن بطريقة ما فهمت أنني على خطأ..
الرجال هنا يمكنهم فعلُ كلَّ شيء.. إلا الصلح إذا كان مع نقصٍ في قدرات الجسد، استطعتُ الحصول على وقتٍ مع أمير واتفاق مع أحمد بالبقاء.. أحمد الذي لعبَ دورَ التمهيد قبلَ أن يخبرني أمير بتأثّره بإصابته.. ومن على مسافة مطمئنة حاولتُ البقاء واستنباط همته ليستمرَّ هو بعلاجه، إنّ أكثر ما يحتاجه المريض عادةً هو الدّعم النفسي غير المتناهي...

هكذا عدت من رحلتي القصيرة؛ وداخلي الكثير من الاستفهام عن حالة أمير! عما خبّأه عنّي طيلة ما مضى.. واكتشافي للفوارق المجتمعية التي تحول بيننا.. حينها لم أكن أفهم أبعاد تلك المواضيع.. وتأثيرها واختلاطاتها.. لكن لم أُظهر أي شيء مما كنت عليه أو فكّرت فيه.. ساعدني غيابي في ذلك.. وتكررت زياراتي القصيرة كلما شعرت أنه يحتاج حَرير.

من خلال تصرّف أمير معي أثناء تلك المرحلة.. كُوّن لديّ دافعُ التدقيق على كلِّ شيءٍ وبدأ احساسي بالفوارق المجتمعية التي بيننا يكبر شيئاً فشيئاً، وبينما أنا هناك في عالمه الحزين، عشتُ واقعاً مختلفاً تماماً بين الواجبِ الدراسي الضخم، والشّعور اللامتناهي بالوحدة والمسؤولية.. والناس الكثر من حولي على اختلافهم... وأيضاً اختلاف بيئة ومنطق التربية بيننا..

أشتاقه؟ لا بل كان أكثر، وأكبر، وأضخم من مجرّد اشتياق! يغلّفه الكتمان. كتماني جعلني أكتب لقلبه...، فأخبروه إذا رأيتموه كيف هي الحياة في بُعده.. أخبروه أنّ النسيان أشدّ من سحبِ الروح وأنّ الليلك على نهدي قد نبتْ.. كأنْ يكون النهد تنهّد.. وبُعث ليعشق..

لطالما بحثت في صباحاتي تلك، عن صباحات حقيقيّة خالية من تشنّجات التعلّق وتقيؤ الفقدان، تلك المرحلة تشبه قصيدةً حزينة تتزاحم أبياتها بالإضرار النفسي والوجداني.. أينما ذهبتَ تجدُ الخوف وولدانه.. أينما نظرت تلاحظُ ذيول التشرّد تركض خلف قلوبِ الناس.. وإذا تجولت على قدميك قليلاً قليلاً لرأيت الحرمان أثناء تجوله بين الحارات وخلفَ جلد الأعناق... خلف جلد الأعناق وأسفلها في القلوب وأعلاها على الوجوه.. هناك تبدو الدنيا أكثر بؤساً..

لكنّ التعلّق كان معي كظلّي والفقدانَ كان بي مثلَ عمري.. النزق عبث بكلّ كلّي وما حولي... طاقاتُ التحمّل استنزفت بلجم سياط التفكير لها، مثل مشاغب وقف على جدار صفّه المدرسي رافعاً يده وقدمه، حتى كره الصف والمدرسة والوقوف.. بينما الواقع؛ اختلف اختلافاً عظيماً...

فالواقع أراد جهدَ المتابعة والمثابرة للوصول لنقطة تأقلم تدفعني من حيث راحة للقيام بالواجبات المتلاحقة والكثيفة.. كلية الطب تشبه مباراة حماسية في كرة السلة تبدأ من اللحظة رقم واحد؛ تُلعب على مسافات متقاربة واختلافات بسيطة، وتَلعب الأخطاء فيها أدواراً مهمة في حسم هوية الفائز.
يبدو أنني أحببت حينئذ كما ينبغي.

"It seems that I fell in love then as I should..."

وفي الواقع أيضاً، عشتُ أياماً سيّئة لكن بصمت وصبر ورضا.. الوقت، التفاصيل، الأحداث.. عملُ الغدد العرقية المتواصل بالرّغم من الأجواء الباردة أحياناً.. الأصدقاء القدامى والأصدقاء الجدد.. التواريخ السوداء التي تملأ حياتنا..
الكثير من الأشياء الكثيرة التي لا يعلم بها أحد.. جلسنا حيث كان كلُّ شيء لا يعجب الدرويش، مثله لا شيء يعجبنا... لكنّ القواعد والقوانين والمبادئ والأعراف والتهديدات والضغوطات و.... لا أتذكرها كلّها، ولكن لن أنسى البتّة أنّها كانت على صدورنا جاثية...

كانت النقود تُفكفك كلَّ عقدة صعبة.. وهذه فكرة القائل؛ كلُّ ما يفتديه المال هيّن، حتى إذا كان هذا حقيقياً لكن ماذا عن الإجهاد؟ عن الأوكسجين فاقد طريق الرئة؟ عن الحبِّ الغائب الذي ما عدنا نبحث عنه؟ عن الضيق الذي نشعرُ به ثلاث ساعات بعد العشرين في اليوم الواحد.

وأنا في مواجهة هذا العالم بمفردي.. على خطِّ النار الأوّل في المقدمة، على الميمنة والميسرة والمؤخرة.. تخيفني استدارة وجهي إلى الخلف، تخيفني عيني إذ رمشت.. أستقبل الرماح بصدرٍ مفتوح وترمى على أيمني الأقدار وعلى أيسرى العتابات... بينما التّهم كانت تأتي من كلّ حدب وصوب..

عندما أذكرُ حجمَ النزيف أشعرُ بالفخر والبطولة لأنني بقيتُ واقفة على قدمي، السؤال الذي سألني إيّاه الطبيب بعد إسعافي من صديقاتي في سكن الجامعة، والسؤال الذي سألني إياه أستاذي عندما جرّب قياس الضغط الشرياني على يدي، وكذلك هو السؤال الذي سألني إياه والدي بعد أن عرف القصة يوم استقبلني على باب بيتي، وسلام (صديقتي). أنْ كيف ما زلتُ أمشي؟.

مشيت على قدمي مع الأيّام، حتى وصلت إلى لحظةِ اشتياق لا تُرد، ضاج فيها قلبي وضجّ بلقاء كان في الصيدلية.. فحضرت نفسي وروحي لزيارة صغيرة جديدة أفعلها للحب، لكن بطريقة مباغتة، كنّا نفكّر كثيراً بالمفاجآت السّارة.. شيء قمنا به مع الأصدقاء والأقرباء والأهل، ظناً بأنّ هذا يسعدهم.

بعد غيابٍ طويل بعض الشيء وأيام مضت بوتيرة عادية اعتيادية بين عاشقين بعيدين، في جوٍّ من الصخب والتحدي.. من الجميل أن تذهب بإجازة قصيرة لتريح نفسك.. نفسك التي عليك حقّها وحقّ راحتها.. وليتها تلك اللحظة لم تأت...

وصلت إلى أمير في وقت ليس بالمناسب أبداً، بعد أن استخدمت أحمد لإيصالي.. ولأنه (أحمد) القريب لأمير، البعيد عن عائلته لظروف خدمته الإلزامية.. الذي يعرف التفاصيل الدقيقة عنه وخاصّة بعد محنته تلك.. بلون سماره الغامق وطوله الفارع، ظنّ أيضاً كما ظننت بينما العزيز أمير لم يكن كذلك، حدث هذا مع نهاية فصلي الدراسي الأول..

ربّما ليست المشكلة أن أراه مع فتاةٍ غيري فأنا لستُ تلك التي تسعى لإلغائه وحذفِ مساحته الشخصية، الخاوية منها.. وليست المشكلة في أن يخون فتاة صغيرة لا تعرف بالضبط ما يريده منها!
كانت المشكلة أنها المرة الأولى التي يبكي فيها جسدي بالكامل..
أينما وضعت يدي شعرت ببلل المكان.. انهارت صورةُ الحبِّ القديمة التي أخذتها منذ قليل..
منذ قليل؟ نعم، في الحبِّ يمضي الوقتُ مثل الضوء المار أمام العيون اللاتي بالكاد تلمحه...

"In love, time passes like light..."

لن أنسى أبداً احتضارَ صوتي عندما أردتُ الكلام... وخذلان دمعي لي أثناء مقاومته للسقوط.. لن أنسى كيف حوّلتُ نظري منه إلى الأرض كي لا تلتقي أعيننا مع بعضها البعض..

ما عرفت ما الذي توجّب عليّ فعله حينها.. حينها انكسر وجهي وتفتّت كأجزاء قطعة بلّور ارتطمت بجسد أحمد القادم عندما استدارت لتسلك طريقة الخيبة بعودتها.

***

أذكر جيداً مشاهد الغضب المتبادلة بين أبي وعمي والد أمير، في اليوم التالي لعودتي إليه.. أو دعني أقول مشاهد التشاور الحادّة جداً.. هذا لم يمنعني من اللّقاء بأمير في اليوم الثالث لنجلس على طاولة حوار ساخن في أحد الأماكن العامة محاولين انتشال أشلاء حبنا من الغرق الكامل..

حينذاك تذكّرت قصتنا بالكامل، وخاصة مقاطع الرجاء التي تلت خيانة أمير لي، في كوخ البيتزا بالتحديد!. لا أعرف لماذا يختار الخائن الموقع الأحبّ على قلب حبيبته ليقوم بخيانته...
كوخ البيتزا يا أمير!.

بعد أن رأيته مع من ادّعى أنها صديقته في موقف أقرب للحميمية منه للصداقة... عدت أنا برفقة خيبتي إلى بيتنا الريفي.. في زيارة مفاجئة أسعدت الجميع وبخاصة أبي.. وجعلتْ من جلدي شيئاً منافقاً يخفي ما خلفه ويبتسم.. عندها بدا لي أن العائلة تبقى في المقام الأول بالنسبة لحياة الفرد منّا.. جميعهم عاملوني معاملة الحبيب في غيابي لكن عندما عدت إليهم لم يقدموا لي تعريف الخيانة لأعيشه...

صدمتي بأمير آنذاك لا تنسى، فقد تزامنت بصدمة أُخرى حيث إن تلك الفتاة التي كانت معه أو صديقته على حد تعبيره، أيضاً هي صديقة المدرسة الثانوية... إحدى الفتيات اللواتي يعرفن حَرير ذات الكتاب، والكتاب ذو الوردة.. ولأن الله معنا، استبدلها لي بأصدقاء جدد في الجامعة.. فكانت لعبة الحذف والإضافة قد بدأت في حياتي الشخصية.. من الممتع إتقان شطرنج الحياة..

وعلى أثر تلك الصدمة بدوت كفاقدي العقل، أهز رأسي لأيّ حديث... وأتمتم أنْ إن شاء الله فقط.. كأولئك المنهارة قواهم، أقبل وأتقبّل أي شيء وأقبّل بثغري الكثير مما نعتبره نحن بنو البشر ضمن تصنيف الجماد.. كالمرآة والمخدة.

ثمّة أشياء لا يستطيع العقل استيعابها لا بسبب صعوبتها بل لأنّها تصلُ في ميعاد مبكر... مثل أن تعرف معنى الخيانة في أوّل عشق.. مثل أن تلعق الحرمان بصبر الفتى اليافع.. مثل أن نأتي بكامل أناقتنا رفقة الشغف إلى موعد ذبول...
يبدو أنَّ الحياة إذا وجدت طاقة فينا تنهيها..

عدتُ إليه؛ لكن لا أعرف كيف أو لماذا! حتى اليوم لا أعرف... مضت الكثير من السنوات، لمّا أستطع بعد البحث عن عذر في طيّات الذاكرة انطوى، فقط تعليق ذلك على عاتق قلبي..

في مثل هذه الحالة يعملُ الجميعُ عملَ الإرشاد النفسي النّاصح.. يُنظر إليها بملائكية كبيرة، صادفتني سابقاً كسامعةٍ لها وحينها قلتُ في نفسي عن الفتاة، كيف تعودُ بعد الخيانة؟. لكن هي عادت، وأنا عدت.. أصحابها (الحالة) هم بحقٌّ لا يعرفون لماذا عادوا فلا تثقلوا عليهم.

بعد محاولاتٍ عديدة استمرّت لعدة أسابيع، بدأ خلالها امتحاني الأول في الجامعة وانتهى، عدت لكنني أيضاً فهمت أن الحرمان هو كاتب سيناريوهات القصص وليس الحب..
أمير عاد كما كان في البدايات عندما دقَّ قلبه شعوره بقرب الفقد... بكى بكاء الأطفال أمامي وعلى مسامعي...
أما أنا فكانت عودتي بعد نفور ضخم عشت فيه، يشبه أوّل الحب، أعترف أن للكره أيضاً مرحلة بداية...

في بدايات العام الثالث لكلية الطب؛ تقدم أمير لخطبتي!.
تلك الأشهر التي ما بين بين، مرّت بين فرحٍ وحزن...

إنّها الحياةُ العاديّة لكلِّ حيّ على وجه الأرض.. لم نكن أبطالاً ولا من فئة الأساطير، ولأنّها في بلادي، الأشياءُ لا تعرفُ الكمال... رفض أبي طلب أمير وأبيه.. صدمةٌ جديدة كنت على موعد معها.. لم أكن أتوقّع الرّفض من أبي، حتى أنني ما عرفت بأنه على علاقة تربطه بأبي أمير إلا عندما رأيتهما معاً..

وللأجيال أفكارها، أشياء ربّيت عليها، تعوّدت على وجودها.. وخبرات كبيرة من نتاج العمر تقاسُ على مساطر الحكمة... ونحنُ الجدد على هذا المعترك، نفاجئ بدورنا ونبقى على صراع مدوٍّ يسمى صراع الأجيال حتى تتوضح لنا الأمور...

مررت برأي أبي بعد اتضاحه، أن الفوارق المجتمعية بين التحرر والتحفظ سوف تتعب قلبي.. لكن ما تغيرت وجهتي.

أنت الآن تعلم جيداً لكن لا تعرف لماذا؟ وأنا كنت أعلم آنذاك أيضاً لكن لا أعرف لماذا! أنه إذا تقدم الحبيب خطوة فإنه في الغالب يحول مساكننا نحن الإناث إلى جحيم! .....

هذا أحد طقوس مجتمعاتنا الغريبة!. لذلك لن أكتبَ تلك الأيام هنا بالإضافة إلى انتقالي لخبر أنّ أبي قد رضي بالتنازل عن امرأته التي جاهدَ في صنعها... والتي أكونها.

وصحوت في يوم خطبتي، لا أعرفُ ما بي... أقوم أبكي، أجلسُ أبكي، أمشي أبكي، وإذا أوقفني جدار غرفتي أستند على طلائه وأبكي... كأنّي غيري الذي لبس جلدي وجاء على هيئتي..

تمددت على ظهري فوق الفراش، أو تمدّد ظهري لوحده فوق فراشه.. ونظرت عيناي إلى سقف غرفتها تتأملها وأنا فوق بكائي أبكي..

الساعة العاشرة. دخلت إليّ أختي تسألني عما إذا كنت قد استيقظت.
"نعم؛ استيقظت."

- هيا؛ إنه يوم خطبتك بأمير.
- نعم، نعم لكن بعد قليل.

عبثاً حاولتُ تذوّق ذاك الصباح.. لكن محاولات فؤادي فشلت..

الساعة الثانية عشر، بل وظهرت جمراته على وجهي!.

الساعة الثانية ظهراً، نعم لكن بعد قليل.

ما تحركت قبل الرابعة، تحركت بلا روح.. صففوا لي شعري وأنا أتساءل هل سيسمح لي أمير بالذهاب مجدّداً إلى مصفف الشعر!؟ ألبسوني ملابس غير ملابسي الفاضحة على رأي أمير..

وفي بيتنا الريفي ذاك، بينما أنا بصحبة أختي أقبعُ في غرفتي المطلّة على الشارع، استقبل أبي أمير مع عائلته للمرة الثالثة على التوالي! هذه المرة كانت لإعلان البداية وليس لطلبها لكن أبي جاء إلي يسألني عن رأيي بدا وكأنه على أمل بأن يسمع ما يريده من فمي.

في تلك اللحظة نظرت إلى أقدامه المتشبثة بالأرض، ربما أكون على خطأ. وفي كلّ تلك الأيام، ما بين شفائك من إصابتك، وقدومك لخطبتي... كنت معي رغم بعدي عنك.. كنت في كل لفحات شتائي التي أتدفأ بها، وخلفها تصمد حرارة دمي أمام تيارات الهواء شديد البرودة... كنت أيضاً في تعرّق جسدي وهو يمشي تحت حرقة الشمس بين مباني كليتي ومسكني وكتبي وذكرياتي وشغفي وقلّة أصدقائي...

أذكرك كلّما مررت بصيدلية في مدينتي الجديدة، بل إذا مررت بعلبة دواء.. أو بقطعة بيتزا... حتى إذا مرت صورة للأكواخ الصغيرة على شاشة المقهى الذي أصبحت أرتاده.. أتذكرك..

وأتذكر غضبي منك وغضبي عليك عندما أخبرني أحمد بما حلّ بك، لكنني من أولئك الذين يشمتون كثيراً ثم يشتمون؛ ثم يبكون، لأني أبذل جهداً جباراً لإيصال تحذيري إلى وجهته.

لو رأيتَ كتبي يوماً لعرفت أن بعض الفتيات عندما يعشقن يُخلصن بشكل لا مثيل له... وربّما فهمت أنّ الحياة لا تؤخذ على عجل.. وأن لأنياب القبل إن هي نمت، لذّة خاصة بها...

قبلت بك مضحيةً بكل ما قيل لي من نصح أو توضيح أو اعتقاد... ولست بنادمة على قبولي.. إن الخائن يرى الجميع خائنين.

لكن لا تظن أن أنثى في هذه الدنيا تصدق أن حبيبها الجالس مع أُخرى بوضع مريب رأته بعينيها، كان يحدّثها لأجل صديقه فقط؟

أخطأت يا عزيزي... أنت الخائن بجرمك المشهود بالنسبة لي، لأنّي فتاة لم تلقّح بعد بمصل الخيانات الكبيرة، وأنا هنا الشاهد والمفعول به.

لن أنسى بالتأكيد، ربما أجلس معك بعد ثلاثين سنة زواج لأخبرك عن إحساسي الدقيق في اللحظة التي رأيتكما بها، إنّما الرجوع هو تشبّث الإنسان بالأمل، وأحياناً هو التشبّث "جكراً".

"Returning is the clinging of a person to hope…"

حتى الآن؛ نحن على فكرة أنّ الحبّ هو عناق..
أبي أبدى عدم رضاه بلطافةٍ بالغة، وأمي حرصت ألا تتفكك خيوط عائلتها، بينما أميرُ عاد ولله الحمد من آثار محنته وعنادِه كلّها بشفاء تام فأصبح عدد ساعات خدمته محدداً في مكان ثابت، يذهب بعدها إلى أيّ عملٍ يريده أو يجده ليقومَ بتأمين قوتِ يومه.

"Until now; We think that love is a hug…"

وأيضاً عاد إلى معهد اللغة الفرنسية كما أخبرني، أو كما أعرف، فقد تركه قبل نجاحه في السنة الأولى، وأنا هناك حيث ذهبت، أنامُ على وسادة من أحلام، وأصحو لأغسلِ بدني بماء أمل دافئ، أرتدي ما تيسّر من ملابسي الطموحة وأذهب إلى عنواني الحتمي، حيث قاعة المدرج الكبيرة المملوءة بالطلاب أمثالي...

لقد كنّا كثراً بشكل رهيب، فالعاصمة في ذلك الوقت كانت تلعب أدوار الأم، والكلُّ مع الكلِّ أتى، يلوذ بأمه المحاطة بالوحوش لا أعرف أين يمكن لبقعة الضوء أن تقع في الجملة السابقة لكنّني أعرف جيداً أننا الآن لا نملك بقعة من ضوء، فلم يعد بوسعها بلادنا أن تضيء دون كهرباء.

هو يكبرني بالعمر ببضعةِ سنوات ليست أكثرَ من خمس، لكنني أكبره بسنوات كثر في امتداد عقلي، وتوسّع آفاق عائلتي الذهنية، على الأقل من وجهة نظري الخاصة..

توقف هنا عزيزي القارئ؛ فأنت في ذلك ربّما تشبهني أو أشبهك... (لا فرق ولا فراق في أولوية الترتيب) لكننا في مجتمعاتنا الشّرقية ومهما كنا نعلم عن قدراتنا أو آفاقنا لا نستطيع العيش إلا عبر التأقلم لأنّنا أسرى قيودها وظروفها الغريبة...

ونحن كنصف المجتمعات تلك، نوظّف بعض العمر على الأقل، بشكلٍ أو بآخر، للتأقلم مع ما لا نريده.. أو ما لا نحبّه..

ثم يختفي ذاك الذي وعد باحتواء أحلامنا الصغيرة العادية، وتتبخّر تلك الأشياء القادرة على تخدير أوجاعنا أو بلسمة قلوبنا، لا أعرفُ كيف تُمسّد جدائلنا أو كيف يمكن اجتثاث رؤوسنا من صداع الذكورة وتسيّد العيب أرض أشيائنا الأنثوية.

تحجّبي، اصمتي، تستّري، تعلّمي الجلوس بأفخاذ متلاصقة، وفي بيتك اجلسي لتتعلمي الغسل والطبخ لا داعيَ لمدرستك، لا داعيَ لعملك، أي فراغ ذاك الذي تتحدثين عنه؟ بالضبط هكذا تربّى الفتاة! تعرف مركز الشرف بالتحديد ومن ثم ترسل لبيت زوجها لتصبح متسولة في الصباح، وفتاة سرير في الليل والله أعلم ما تكون بينهما!

ليس الكلام هذا دعوة لتبرّج.. فلست أنا التي تحدّد نمطَ حياة الأخريات، وبالطبع ليس تحرّشاً بحرمة الأديان، فالأديان لأصحابها، ولكنه حتماً دعوة لك بكسر الكاف، كي لا تضعي حبل مشنقتك عزيزتي في يد رجل مهما امتلك من الصفات أو بلغ في المحاسن، ففي المعظم الواقعي، يختفي.

تغيّر أمير عنّي إذا قارنته ببداياته، لكنّه تحسّن عمّا كان عليه بعد إصابته إنّما نحن من حجم العطاء الذي نقوم به، من حجم انتظارنا الذي نعيش فيه، من حجم أمانينا المرفوعة للسماء..

متعبون جداً من أولئك الذين قاموا بأشياء كثيرةٍ لأجلنا ثم قدّموا لنا الفواتير الضخمة لدفعها دونَ توفّر خدمة التقسيط... من تدافعنا ككريّات أجسادنا البيضاء في شوارعِ بلادنا الملتهبة.. من أعضائها الممددة على فُرش الموت، كلٌّ في مكانه.. ثم كلّ بحطامه..

من هول ما يحدث حولنا وبنا، نحن أولاد العالم الثالث الذي لا لزوم له ولا لأولاده.. لكن الله أراده أن يكون فكان، لحكمة ما يعلمها هو...

يأس؟ أبداً هذا ليس نتاج اليأس يا قارئي.. فنحن ندفع أثمان صراعات العالم بالكامل.. وقراراته، ومخططاته المأهولة بحروب دامية...

وبدأنا وقتئذ بالسعي لبناء بيت حلالنا كما يفكر أي زوج بشري من الناس العاديين، أُصبح على قيد مسائي في الضيعة الصغيرة تلك ذات الرحاب الأخضر الواسع والهواء المصاب بتخمة الأكسجة، أنا أيضاً وجدت عملاً، على بساطته، وفّر لي فوق ما وفّره أبي وكان بهدف الادّخار..

هذا يجدي نفعاً بعض الشيء لكن على المدى البعيد، بالتأكيد إنّها بعض الخطط البدائية التي تفضي بالضرورة إلى عيشٍ بدائي، شيء من قبيل البدايات، كأوّل خطٍّ يرسم في لوحة متخيّلة، وأولى كلمات الترحيب في رسالة.

أتدري أمير، بقيت هذه العادة معي حتى هذا اليوم الذي أكتبُ فيه الآن، وهذا ما فعلته خلال أيامنا، حاولت التوفير لأجلنا إنّها حقاً أشياء مفيدة على مداها الطويل، لأنّها تنقذنا من مفاجآت حياتنا السيئة، وبطريقة مخيفة الآن أيضاً، كلما تقدّم بي العمر يوماً ازداد الجنون عندي أأكون يا عزيزي، دون أن أدري من أولئك أصحاب الحياة المقلوبة؟ أولئك الذين التصقت أجسادهم بأرواحهم مستنزفة إيّاها دونما رحمة أو وداع.

لا أعرفُ لماذا افترقنا، لماذا تغيّرنا، ولكنّ هذا أحد تفاصيل الحبِّ التي أخبروني إيّاها كثيراً... كثيراً.. وجاهدتُ كثيراً بألّا ألتفت إليها متفاديةً أن أكون من أهل تلك التفاصيل لكنّها الحياة، شمّاعة مآسينا وآلامنا.. واختياراتنا البائسة، حظوظنا السيئة في اللقاءات التي من نصيبنا كانت..

ولا أعرفُ لماذا تزوجنا لكنني أصبحتُ على علم كاملٍ بأنَّ تلك التضحيات التي نقدمها نحن البنات، تجعلكم تنكرون نعم الله عليكم، اللاتي يقدّمها من خلالنا لكم..

فبعد كلّ شيء ترحلون فقط لأن أغلبنا لا نعرف فنّ المسافة ولا نعترف به أصلاً، ألّا تقترب كثيراً فتحترق ولا تبتعد كثيراً فتموت..

"Don't get too close and burn, and don't go too far and die..."

لن تصدّق كم مرّة حاولت ايجادك بدافعٍ من حديث زميلاتي... ثم بدافعي الأنثوي الخاص.. وربّما لن تجد في هذا أيّة أهمية تذكر.. أنتم هكذا، تخالفون إناثكم دائماً لتنالوا وصف الرجولة..

لن تصدّق كم مرة تخيلتك مذ عرفتك، على صغر سني آنذاك وصغر خيالي الذي ما كنت على دراية من وجوده أصلاً، كم مرة نظرت فيك أو بشاب يشبهك، كم مرّة رأيت وجهك بدل وجوه الآخرين، هذه أيضاً إحدى عاداتي المتكوّنة بك، وبقيت معي حتى الآن.. أتدري؟ أعرف من الوجه وجود جيناتك فأحبُّ الوجوه وأهلها.. والحبّ فخ، مثلما الفرح فخ... مثل الحياة بكلّ معانيها... مثلك أنت وحياتك وحبّك والزواج منك...

"I know from the face the presence of your genes, so I love faces and their people…"

"عزيزتي اشتري سيارة بأربعة دواليب؛ أو باثنين.. حتى تجيبيهم بأنك ستسافرين لوحدك عندما يخبرونك بهروب القطار منك يوماً ما... هكذا تجعلينهم يجمعون أنفسهم منصرفين عنك"

هكذا ردّت إحدى زميلاتي في الجامعة على تذمر صديقتي من مجتمعها أو مجتمعنا.. لازالت تلك الجملة في ذهني وأذكر حتى وجه زميلتي وهي تقولها..

لكنني حينها لما أعتقد أيها العزيز أن هذا أفضل منك؛ رغم انكساراتك وعصبيّتك، ومحاولاتك البائسة للعيش أردتُ فقط البقاء على مبادئ ربّيت عليها، وصفات أوجدت بأمي فاستطاع أبي من خلالها إكمال سياج عائلته.

أمير؛ لماذا تزوّجنا يا أمير، لماذا فعلت بي ما فعلتْ، لماذا؟.

***

بعض اللقاءات تقسمك إلى نصفين، تفتح فيك آفاق قلبك.
أنت تشعر بالانبهار دونما سبب عندما تجد أحد أشباهك، وهذا قد حدث معي عندما رأيت تلك الفتاة التي تصغرني بسنوات ثلاث في إحدى غرف الإدارة الجامعية المتخصّصة بالخدمات الطلابية..

رأيتها تصرخ وتحاول خفض صوتها في آن واحد، تجول بعينيها لتتأكّد من خلوّ المكان، تلوح بكلتي يديها في محيط جسدها ووجهها البريء الأسمر ملأته غزارة دمويّة، سببها ارتفاع مستوى الغضب وليس الخجل.. يا إلهي كيف كانت ألوان وجهها!

لكنّني أحبّ هؤلاء الفتيات اللاتي يدافعن عن أنفسهن وحقوقهنّ بشراسة لا أحد يستطيعُ الاقتراب إلا بجواز اقتراب تمنحه هي بسُلطة الأنوثة وسلطانها.. يشبهنني جداً..

لا يمكن لك معرفة عمق علاقةٍ عند أوّل مرورٍ أمامها، ولا حتى معرفة أنّ هذا الشخصَ الذي التقيتُه صدفةً وقلتُ له جملةً عابرةً، سيكون غداً من ألذّ أصدقائك لفترةٍ ما من العمر أو ربّما العمرُ كلّه.

لكنّ بعضَ العلاقات الجميلة تأتي هكذا، تذهب بك بشكلٍ مباشر إلى أعماقها، هكذا دواليك حتّى انتهاء الشغف بعدها تستعيدُ عقلك لتفكّر إلى أين؟ وأنا هنا لا لأحدّثك عن النتيجة بل لأرجوك ألّا تندم على أيّ وقتٍ جميل قضيته.
من عادة تلك البدايات أن تكون رائعة، والعقل من عادته إفسادها.

كلّ ما قلته لتلك الفتاة: "لماذا تصرخين؟ المكتب الذي تسألين عنه هناك في الممرّ الموازي" وما لبثت إلّا ثوانيَ حتى نهرتني بطريقةٍ عجيبةٍ ومشتْ عنّي متمتمةً، "لماذا أصرخ؟ لماذا أصرخ؟".

شيءٌ ما جعلني أضحك حتّى كدتُ أفلتُ نفسي من الضحك، في الحقيقة الضحك من عاداتي، أحبُّ الضحك على كلِّ شيء، سوف تظنُّ أني على سكْر إذا دققت بضحكاتي..

في اليوم التالي صدفتها في بهو الجامعة، عرفت خلال تلك الصدفة أنّها من الطلاب الجدد، ضحكتُ برهة ثم توجّهتُ نحوها وبعد أن أصبحت على مقربةٍ منها قالت في وجهي: "تخيّلي أنّه قال لي: إن وجدتني أنظرُ لغيركِ؛ فتلك نظراتٌ عابرةٌ لا تصلُ حدّ التأمل".
"إنّه يريدُ النظر إليهن بسلاسة!".
في وجهها تعبير لا أقوى على كتابته لكنني احتفظت به مذ رأيته..

سلام! اسمها سلام...
بعد التعبير إيّاه، مشينا معاً لبعض التسلية على فرضِ أن نفترق إلى قاعاتنا بعد نحو ساعةٍ من الزمن، هكذا اتفقنا..

حكت لي قصّة الشابّ القائل للمقولة الأولى... يومَها قضينا ساعاتٍ كثيرةٍ بكلِّ ما فيها من اتفاقات وهموم ومهامٍّ دراسية.. أيضاً حدثتها عن أمير، عن بنات مدرستي الأولى ومدرستي الثانية... عن حَرير ذات الكتاب التي أصبحت الآن متفوّقةً في كليّة الطب بعد ذلك الرّقم السابق ذكره... وعن الكتاب ذي الوردة..

ضحكنا كثيراً.. نحن فتاتان تناولتا الكثير من الحبوب المسكّنة.. بضحكتين جذّابتين... أتذكّرُ كيف كنتُ أكلّمها عن الوردة التي وضعتها في الكتاب... حدثتها عنها وأنا مبتسمةٌ كأن أكون قد انتصرت في حربٍ طويلةٍ دون أن تُكشف حيلتي.
مذ ذاك اللقاء وحتى اليوم.. نحن معاً.

"From that meeting until today. we are together.."

تزوجت، بعدَ دخولِ سلام لحياتي بأشهرٍ عدّة...
ففي إحدى زياراتي للبلدة.. كنت برفقةِ أمير... أعبث بهاتفي، وأتقلّب بين وسائل التّواصل الاجتماعي...

تصبح علاقاتنا بأشخاصنا مملّة بعد وقتٍ ما، لأنّنا شعبٌ لا يعرفُ المسافات أبداً، الشباب منّا يقيّدون إناثهم جداً، والإناثُ منّا يردن أن يصرن كلَّ شيء..

والحقيقة أنّك إذا رغبت العيش بسلاسة عليك تعلّم فنون الشطرنج البشري، لا تنسَ ذلك.. أن تستطيعَ تبديلَ أماكن الأشخاص بحسب ما تريد، تلك خبرةٌ حياتيّةٌ ضخمة سوف تصلها حتماً.

لا بدَّ لك يا قارئي وأن تكون قد خضتَ بعض التجاربِ على تلك الوسائل، إن لم تكن كثيرة، أنا أيضاً تعرّضتُ لحوادثَ كثيرةٍ، وكنت دائمةَ الإجابة، بأنّي على حبِّ شابٍّ هو أمير.

لكن حينها، في تلك الزّيارةِ بالتحديد، عرفتُ أنّي موضعُ شكٍّ عند أمير، لا أعرفُ لماذا خُطف هاتفي بيد أمير، ولا أعرفُ لماذا أراد مباغتتي بهذه الطريقة وفي تلك اللحظة بالتحديد، ولا أعرفُ وقد ذهبَ من العمر ما ذهب، لماذا اتهمت بالخيانة! تكرّر الموقف قبل ذلك، وصار بعده أكثر. فهمت المعنى من أن يتوخّ الرجال الدّقة فجأةً وبطريقة مباغتة.

لم أخن أمير، إذا أحبَّ التصديق فهو له، وإن لم يحبّه فهذا خياره، أصبحتُ الآن على قناعةٍ تامّةٍ بذلك.. لستُ أنا الخائنة بل هو... والخائنُ يخافُ ممّا اقترفَتْ يداه..
قال لي يوماً أنّهُ حدّثها بطلبٍ من أحد أصدقائه.. لكن لم يخبرني عن سبب أحاديثهما الطويلة، هل كان بطلب من صديقه أيضاً؟

عن الغزل السافر بها، هل طلب منه الغزل بدلاً عنه؟ يوم قدّمتُ له الغفران نسي سؤالي عن النسيان...

غفرتْ ولكنني لم أنسَ ولم أتجاهل.

"I forgive, but I have neither forgotten nor ignored.."

عرفت حديثه الكامل مع عفراء، عرفت رسائلهما أيضاّ.. كان في خيانة كاملةٍ معها.. ثم جاءني والدّمعُ على وجنتيه قد انسابَ تعطّفاً.. طلب الصفح بكلِّ فظاظة..

آنذاك؛ انتصب أمامي قائلاً: **"إذا كنت تحبينني يا حَرير علينا أن نتزوّجَ الآن!"** يا لها من لحظاتٍ مجنونة..

هذا الإصرارُ؛ تولّدَ على نحوٍ سريعٍ جدّاً عندَ أمير.. النطاف كان شعور الخوف من فقد مفاجئ.. الظنُّ، لعب دور العروس الأنثوية...

حينما أذكرُ ذلك اللقاء أشعرُ بحاجة جسدي للتمدّدِ على الفراش، لأنَّ جسدي أيضاً يشعرُ بخيبةٍ كبيرة، ما انفكَّ إصرارُ الشابِّ على فتاته يعطيها إحساسَ النشوة بأنوثتِها، إلّا إذا عرفت أنّه وليدُ الظنّ بها... لا وليد الحب..

خلال أيّام.. استطاع أمير إقناع عائلتي بضرورةِ تنفيذ تلك الخطوة في وقتٍ قريب، خاصّةً وأنّ الوقتَ الذي جمعنا بشكلٍ رسميٍّ معاً، ليس بالقليل..

وتماشياً مع أحوالِ بلادنا حينئذٍ، لم نحتج للكثير من التحضير.. فقد أصبحت الحفلاتُ تقامُ على نطاقٍ ضيّق، بصوت فرحٍ خافتٍ رقّ لأجل الكثير من العبَرات والكثير من الأحزان والكثير الكثير من الفقدان..

أما أنا، غرقتُ تماماً في الضياع.. كأنّني أركضُ أمامَ أعدائي عاريةً لكن دونما وجهة محدّدة، فقط هروب...

في بعض الحياة، نتأمّل وندعو متودّدين لشيءٍ نريدُه، وعندما يقتربُ منّا ليكونَ حقيقيّاً، نرتجفُ من الخوف...

بالطبع ظهرَ ذلك عليّ، على كلامي، تحرّكي، وأفعالي.. ممّا دفعَ أمي لمحاولةِ استدراجي بالكلمات بدايةً، ثم انتقلت للسؤال مباشرة، عمّا بي.. أختي أيضاً حاولت، أخي كذلك الأمر.. سلام كأقربِ البشريين القادمين من العالم الخارجي، أيضاً جرّبَتْ حظَّها... بينما أبي استمرَّ واقفاً عند مدخل حياتي الجديدةِ منتظراً منّي رفضَ ارتداءِ طرحةِ العروس...

أولئك المعتّقون في الحياة، يعرفون أنّ الأملَ لا يموت.. يتمسّكون في أشيائهم بجديّةٍ بالغة.... ليتكَ يا أبتِ لم تمنحني حريّةَ اختياري، ليتك فتحت في جسمي فتحاتٍ للدم لتتفادى انتظارك، يعزُّ عليَّ انتظارك يا أبي..

قبلَ توجّهي إلى مكانِ زفافي البسيط عانقني، وقال همساً: "ابقي كما أعرفكِ، وقويّةً.. أنا هنا دائماً" ثم ابتعد..

ابتعد عنّي أبي ثلاثَ مرّاتٍ في حياتي... الأولى كانت في بدايةِ الثانوية؛ عندما وضعَني بين صديقات مدرستي الثانية؛ ومضى إلى أشغاله، حينها بكيت.. والثانية كانت في بهوِ جامعة دمشق، كليّة الطب، تركني وذهب، حينها ارتعشتُ.. والثالثة ليلة وداعي التي يسمّونها ليلة زفاف، وحينها فقط وقفتُ كما أنا... لكن في المرات الثلاث، انتابتني القشعريرة حتى احمرّت أطرافي.. في المرّات الثلاث يا قارئي خفتُ كخوفِك الآن من هذه السطور..

وقفت أمامَ المدعوّين المنتشرين على طرفي المكان، بجانبي زوجي المبتسمُ اعتزازاً بانتصاره، أصوّب نظري تارةً إلى أهلي وأقربائي وتارةً إلى أهله وأقربائه، دعوني لا أنكرُ فرحي، لأنَّ حَرير الطفلة لازالت تعيشُ في داخلي، لكنَّ نظراتي تلك حرّكت فيّ الشعور بعدم الاطمئنان..

هنالك فوارقُ كبيرةٌ بين البيئتين، حتى نظراتهم إليّ كانت حادّة، حتى فرحهم كان الفرحُ على استغرابٍ ودهشة، هكذا بدأ وهكذا انتهى زفافُنا المصغّر، مرتديةً فستاناً كلاسيكيّاً بارعاً في بساطته، بجوارِ فارس أحلام بعينٍ واحدة.

عندما عانقني، تأكّدتُ أنّ العالم يعانقنا أحياناً، أنّ دنيانا تبتسم لنا في بعض الأوقات، ابتسامةَ فكّين أدردين، تشعرنا أنّها حقّاً نبعت من قلب.

"When he hugged me, I was sure that the world hugs us sometimes…"

اليوم أعرفُ أن كلّ صديقاتي أو أغلبهن لم يتزوجن أحبابهن كما فعلت حَرير ذات الكتاب، هذا ثمن النقاء (إذا ما قمنا بفصله عن اللاحق مما سنقرؤه) وإذا لم نقم بفصله، سوف يصبحن كلّهن محظوظاتٍ عدا حَرير ذات الكتاب.

أتعرف إشارة النصر التي يقوم أولادُ فلسطين برفعها مبتسمين؟
بالضبط، السبّابة الأقربُ للجسد والوسطى بعدها.. هكذا كان زواجي... الليلة الأولى؛ الليلة الثانية.. ثم ليلة....

لازالت تلكَ الليلةُ صعبة حتى اليوم، حتى بالذكر..
بعضُ الليالي التي تمرُّ على الفتيات في بيوت أزواجهن، ليست تنسى أبداً..

"Some of the nights that girls pass by in their husbands' homes are never forgotten…"

بعضُ الكلام يبقى في حلقي حينما أتحدّث عنها، ولكي أكون صادقةً على الأكثر، لا أحاولُ إجباره على الخروج من موطنه البتّة... لأنّي على قناعة كاملةٍ بأنّ الوداع القسري مؤذٍ للغاية... وبعضُ الصّورُ العالقة، تبقى في الذّاكرة من تلك الليلةِ تحديداً دونَ سواها، عندما أشاهدُها في بصيرتي الآن أضحك عليها، على قبولي بها... أيضاً على غبائي!

يومها أردتُ لقصّة حياتي البسيطة أن تتوقف، أثناء كلّ ارتطامٍ جمع بين رأسي من جهة والحائط من جهة ثانية، أردت لقصّة حياتي التوقف. ضربني أمير بشكلٍ لا يمكن وصفه أبداً، أعتذر للغتي العربية عن شكّي بوجود تعبيرٍ يناسب حالته أثناء ضربه المبرّحِ لي، لقد كانت أفعالُه أفعالَ وحشٍ أراد التبوّل ولم يستطع، فتبوّل بطريقة شنيعة جداً، تبوّل بجسده الكامل.. حتى فمه تبوّل.. حتى أفكاره تبوّلت..

هي ليلتنا الثالثة فقط، فلا يمكنُ لي أن أكون قد آذيته لدرجةٍ كتلك التي عاقبني بها.. كلُّ القصة كانت عن خطأ حدثَ أثناءَ وجودِ بعضِ الزوّار المباركين لنا! وما بعدَ تلك المباركة لم يعد كما كان قبلها...

بعضُ الرّجال كائناتٌ غريبة لكن لا تُكتشف إلّا بعد التورّط فيها.. في عشقها...

"Some men are strange beings, but we can't discover them until being involved in them.. in love with them..."

اليوم أظنُّ أنّ صمتي على اتهامي بالخيانة كان سبب الاستهانة بي.. أنثى وزوجة وشريكة وحبيبة.. أحياناً تفصلنا الحياة عن أنفسنا، لنصبح نحن، نحن الغرباء عنّا.. نحن الجدد بالنسبة لنا.. إنّهُ المنطقُ الذي لا ندركُ نحن بنو البشر ماهيّته وإن أدركنا فإننا نصل إلى الادراك متأخرين جداً..

يومَها أصبحتُ أنا أبي؛ أنا أمي.. واخوتي.. وطبيبي..
كانت حياتي سلسلةً طويلةً من الرّكض، محطّة وقوفه الوحيدة، تقع بعد بعد الحياة بقليل، قبل قبل الموت بقليل.. وثالث أيام زواجي، علامة فارقة خلالها...

الكثير من الدماء نزلت مني، وجهي ازرقّ بالكامل، وغادرت مني روحي حينئذ، بقيتُ على صمتي باستثناء سلام التي صعقت تماماً وقتها..

غبت عن عائلتي ألملم آثارَ جنون أمير الذي كان حبيباً رائعاً بالنسبة لي ثم لا أعرفُ ماذا حصلَ له بالضبط، وعليّ أن أعترفَ، بأنَّ الأيّام بعد ذلك فقدت رونقَها وشهيّتها، فقدت أناقتها..

أصبحت حَرير (التي هي أنا)، تعيشُ مع علاماتِ الحبِّ التي ملأت جسدها ككدمات، بلا أيّ دافع للعيش.. وكلُّ ما تقومُ به، إنّما هو مضيعةٌ للوقت لا أكثر.. مثلَ أن تستيقظ لتبكي، أن تبكي حتى تموت، أن تموت لتعيشَ... إنّها سلاسل الحياة المليئة بالخوف، ثم المليئة بالشجاعة..

لم أعد إلى والدي، فهنا لا يسمح للنساء بالاختيار.. وإذا سُمح، فتُرجمُ الواحدة منّا بنتائج اختيارها السّيء، حين تعلنُ سوءَ اختيارها...
استمرّت الأيّامُ في كشف حقيقة أمير، وتناولت من جنون يده الكثير من اللّكمات... لطالما شعرتُ بحقده، ربّما إذا ضربت عن حبٍّ لن أحزن... لأنّ حبّه كان خلاصة السلام والحقيقة في حياتي، وقد جعل كيمياء الهواء في صدري تتغيّرُ عندما انتهكَ فمي وعشقي الكبير..

لم أقل قبلَ الآن؛ أنَّ رئتيّ قد أنبتت ورداً مذ تاريخ ارتشاف عبيره الأوّل، كذلك نباتات خضراء وأنغام تجعلُ الرّوحَ ترقصُ مع رقص الجسد، لم أقل قبل الآن، لكني الآن أقول وأضيف؛ بأنَّ ثمّة نهدين عطشا المداعبة.. وأذنين اشتاقتا لغزلٍ طالما رسمَ ابتسامةَ ثغرٍ مراهقٍ متواجدٍ في وجه حَرير...

الآن وبعدَ ما يقاربُ الخمسَ سنوات؛ أكتبُ وأتساءلُ بيني وبين نفسي، عندما أتذكّرُ تلك القصةَ وما مرّ فيها من فصولٍ وتفاصيل؛ لماذا منحني أميرُ الحياة ثم اغتصبَ روحي والحياة بي؟!

تتغيّرُ الحياة؛ لكن لا بأس.. تتغيّرُ الأيّامُ وأشكالُ البشر.. تنقلبُ الأفئدةُ بطريقةٍ مريبةٍ من طيّبةٍ إلى بغيضة، ومن حنونة إلى قاسية، ويمشي الألمُ مع الأملِ مثلَ ظلّ الأمل، يفقدُ الأمانُ وجودَه فتصبحُ اللحظاتُ، كلُّ اللحظات مرعبة.

تزوّجت برغبتي.. فمن هي تلك التي يطلبُها حبيبُها إلى قاعةِ الزّفافِ وترفض؟! تزوّجت عن قناعةٍ بأنّي اخترتُ لنفسي ما يناسبني حقاً، أمّا الذي حصلَ بالفعل، يعني أنّي زوّجت لنسخةٍ أُخرى من أمير.. أمير الذي بقي يوجعني بيده ولسانِه وعينيه حتى عندما علمَ بأنّي حامل!

حينها أقمتُ علاقةً شخصيّةً مع الذلّ وتعرّفتُ عليه جيداً حتى حفظتُ ملامحَهُ تماماً ثم صرتُ أعرفُ الوجوهَ التي يسكنُها، من نظرةٍ واحدة.. فتَكَ الزواجُ بجسدي وروحي وشبابي فتكاً فظيعاً حتى بتّ أشبه بلادي، صفعني غفراني، حتى رقَّ جلدُ وجنتي، وكادَ يطلُّ عظمها على الدنيا، افتقدتني رحابُ كليّةِ الطب، رغمَ أنّي انتقلتُ مع زوجي إلى جوارها، افتقدت كلّيتي لحَرير ذات الكتاب؛ التي صارت حَرير ذات الألم...

تجاوزَ الحزنُ الحدود ومحى احمرار كلِّ الخطوط الملوّنة بالأحمر، تغلغلَ تحتَ فراشي، سكنَ في أدراجِ مطبخي الفارغة غالباً، وتسلّقَ جدرانهُ البيضاءَ المتّسخة حتى صارَ على مقربةٍ من سقفه، ثم قفزَ على أكتافِ سلام.. واستقر..
آنذاك؛ كانت البلادُ كلُّها تعيشُ هذه التفاصيل مع الحزن، لكن بطرقٍ متعدّدةٍ مثل المغادرة أو الغياب أو الموت أو الخوف أو الغرق...

نحنُ كنّا نتغيّرُ أيضاً؛ حيواتنا بدأت تتحوّلُ إلى حياة واحدة لكن لا تطاق، ثم انقلبت بلادُنا بطريقة ما، إلى أمٍّ مُنجبة، فتزوجتْ وبدأت تنجبُ همّاً، كلَّ يوم، كلّ يوم.. يا إلهي كيف يمكن العيش هنا.. صارَ العيشُ هنا هو التحدي..

وأنا كنتُ مثلَ بلادي التي بالغتْ كثيراً كثيراً بالكتمان، واحتواء الألم حتى صارت من مولّداته كم تحملتِ يا بلادي، وكيف؟
إنّها الحياةُ، التي لطالما أخبرونا بروعتها في الشعر والغناء وكتبِ المدرسةِ البسيطة، على شاشاتِ التلفزة والإذاعات بمختلف توجّهاتها، وأوتار آلاتِ العزفِ بكلِّ أنواعها..

الجميعُ كانَ يصرخُ لأجلِ الحياة، لكن الحياة قصّرت، بحقّي وبحقِّ جيلٍ كاملٍ فُضَّ غشاء أحلامه بشكلٍ متعمّد، بحقِّ جيلٍ كاملٍ عوتب حتى على الملابس التي ارتداها.. الجيلُ الذي تسلّمَ ركامَ كلِّ شيء، ثم حوسب على الرّكام!.

إذا كنتَ تفكّرُ بي أو بالمرّات التي رأيتُ فيها الحياة فسوفَ أجيبكَ دونما انتظار؛ قد رأيتُ الحياة عدّة مرّات، مرّة على هيئة لقاء، ومرّة على هيئة عناق، مرّة على هيئة رسالةٍ والرسائل أحياناً كالبلسم، ومرّات كثر على هيئة صديقة أو فراق...

لكن المرّة الأهم كانت على وجه رجلٍ عجوز ما عادَ في أيّامه شيئاً للحزن، أذكرُ وجه ذاك العجوز وكأنّي أراه الآن وأسمعه يقول لي: "لا تحزني يا ابنتي، فالحياة لا تتّسع"... حصلَ ذلك عند نهايةِ الشهرِ الثالث تقريباً من زفافي الميمون، عندما خرجتْ من عيادة الطبيبِ الأخصّائي بالتوليد وأمراض النساء، كنتُ قد تأكدت من وجود الجنين داخلي محتارةً بين الفرح أو الفزع.

ثلاثةُ أشهرٍ مرّت على نحوٍ بغيض جداً، عشتُ فيها مراتبَ السّعادةِ الزوجية مع أمير، قبلَ أن يستدعى ويذهبَ للخدمة في قريةٍ مجاورة لقرانا الأصلية، مما أبقاني وحيدةً في منزلي المستأجر بالعاصمة، لكن ذلك لم يمنعني من إخباره بما حصل، والمفاجئة كانت بحضورِه في مساء اليوم التالي بشكلٍ مريب واستثنائي..

كما أسلفت، كان المنزل قريباً من جامعتي، مكوناً من غرفتين إحداهما للنوم والثانية للمعيشة ملحقةٌ بمطبخٍ صغير بإمكان شخص واحد الوقوف فيه..

يقبع ذلك المنزل في الطابق الأرضي لبناء بسيط وعشوائي في حارة شعبية جداً، ومرتفعة بعض الشيء عن باقي أحياء المدينة، تبعدُ حوالي خمسةِ كيلومترات عن كلّيتي، التي قمتُ بزيارتها في ظلّ عدم تواجد أمير وقبل عودته المفاجئة. حينها التقيت سلام مجدداً بعد غياب طويل منعت خلاله من الخروج؛ خشيةَ الكدمات الواضحة في جسدي...

لقاؤنا هذا، يشبه لقاءَنا الأوّل إلى حدٍّ بعيد، حديثي لها لم يتغيّر، بعضه عن صغري، بعضه عمّا بعد ثانويتي، بعضه عن أمير، لكنَّ أمير زوجي، أو تلك النسخة التي تزوّجت منها، خلافاً لما حدّثتها به عن طريق الهاتف أثناء غيابي.

ولأنَّ هذا العالم لا يخلُ من الخير، استطعت بفضل سلام اللّحاق بامتحاناتي الفصليّة، وتقدّمت لها، كان الأمرُ صعباً جداً.. خاصّةً بغياب زوجي فهو أيضاً حسبَ كلامه قام باستئجار منزلٍ صغير يؤويه، محاولاً استغلال وقته كاملاً بالعمل، لكن ما كانَ يرسله لي لم يكن يكفي حتى للأكل..

ثمّ بعودةِ أمير المفاجئة عرفتُ أننا ابتعدنا كثيراً.. شيءٌ ما قد انتهى ربّما هي البدايات، فانتقلنا إلى ما بعدها، كانَ لغيابه معانٍ كثيرةٌ مؤلمة ومؤثّرةٌ لكنّه رغمَ ذلك يبقى مريحاً بعض الشيء، عندما يخصّ الحدثُ القلب، يصير الرحيلُ أفضلَ من البقاءِ بجوارٍ بارد، أفضل من مظهر الحقيقة أو ملمسِ النهاية، صديقي إذا مررت بجملة تقول: "من يحبك لا يتغير أبداً ". فاستمتع بقراءتها ثم أكمل حياتك بشكلٍ طبيعي، لأنّها ليست صادقة بل ومرفوضة من منطق الحياة التي نعيشها... ففي هذا المنطق لا يمكن نفي التغيُّر (أو أحد أشكاله..) بشكلٍ مطلق..

"When the event concerns the heart, leaving is better than staying by a cold side…"

سوف تبدو الأماكنُ بلا تغيير، والملابس أحياناً.. ربّما روائحُ العطور وروائح الأجساد.. لكن احذر، فهذا يحدث أيضاً أثناء الهُدن.. إنّه شيءٌ من خدع الحياة المزاجية والمتقلّبة بطبيعتها...

كنتَ أشغّلُ التلفاز دائماً (لا تعملُ تلك الأجهزة إلا في أوقات مخصّصة، لسنا نحن الذين نختار تلك الأوقات) فيعملُ عندَ وصول التيار الكهربائي إلينا وينطفئ بانقطاعه، ليعلن بدء دورِ الراديو، كذلك بعض الأضواء الرقيقة في منزلِ الوحدة الصغير الذي أقطنُهُ أنا، كقائدةٍ لكلِّ ما فيه دونما شريك...

بالإضافةِ لبعضِ التواصلِ العائلي الخفيف خاصّةً مع أختي لكن بلا بوح، زياراتُ سلام وبعضُ المؤونةِ التي تأتي بها، ساعدنني على الصعاب وتوفير شيء من اللا شيء الذي يرسله زوجي على رأس كلِّ شهر، لأستخدمه بشراء بعضِ المحاضرات والكتب...

وينتهي يومي في الكثير من الأحيان، بذهابي للنوم كمن يريدُ الدخول في غيبوبة طويلةٍ لا في رحلةِ البحث عن الراحة أو الطمأنينة، كأنْ تبقى يا عزيزي بعيداً، كثيراً، جليلاً... وتستمرّ الحكاية..

"As if you, my dear, are staying far away and the story continues..."

خلال تلك الأيام، تناولتُ الكثير من الحبوب المنوّمة، كانت أقلَّ ثمناً من أيّ وجبةٍ غذائيّةٍ ثانية سوفَ أحتاجها، لو بقيتُ بلا كثافة النوم.. أما وجبتي الرئيسية الوحيدةُ فلم أكن أتناولُها إلّا عندَ اكتمالِ الشّعورِ بأنّي سوف أسقطُ بعد بضعةِ دقائقَ لا أكثر...

هذه حقيقةُ الأمرِ الذي جعلني أرشقُ امرأة حاملاً في هذهِ البلاد، حتى خلال الشهر الأخير.. هذا الأمر الذي جعل الكثيرات من نظيراتي ينظرن إليّ بحسد!.

غادرَ أمير عندما فقد أمله بالإجهاض.. بالتالي قد حضرَ بضعةَ أيّامٍ من ذلك الحمل القاسي، غادرَ بحجّةِ العمل.. ولا أعرفُ لِمَ تزوّجنا إن كان سوفَ يغادرُ بحججٍ مختلقة.. وبقيتُ هكذا، فريسةُ الجوع والقهر، أسيرةُ الكتبِ والامتحانات، حتى وضعت جوى "ابنتي الوحيدة" وبدأت تكبر الفاجعة...

***

وضعتُ جوى، وكأنّما وضعتُ مشاعري وإحساساتي كاملةً، ثم قمت لأكملَ الجريَ بدونها... ربّما بصقتُ قلبي بفجواته وصمّاماته وسوائله وشغافه كقطعةٍ واحدة من ثغري، متأملةً أن تتوقفَ الحياة، لكنّها لم تتوقف الحياة..

تلك اللحظة التي سمعتُ فيها صوتَ البكاء، كانت لحظةً فارقة.. مثلَ أن تكونَ قد فقدتَ شغفَ السعي وراء الأشياء، ثم غفوتَ هكذا بأفكارك وهيكلك لتستيقظَ فجأةً بعد نومٍ عميق، بأفكارٍ جديدة وشغفٍ جديد احتلوا الهيكل القديم ذاته... إذا مررت في تلك اللحظة، لن تتذكرَ من كنتَ بالأمس..

فتقومُ تركضُ من لحظتك التي فيك، إلى تلك اللحظة القادمةِ إليك، حينما يصبح عَقربُ العمر مشيراً إلى النجاح، النجاح الذي سعيتَ وتسعى إليه دائماً... إنّه إذاً تاريخُ ولادةِ شيء ما، تاريخُ وضعِ حجرِ الأساسِ لشيءٍ ما، تاريخُ الاندفاعِ والسّعادةِ والسذاجة، وربّما يكونُ أيضاً تاريخَ حبٍّ جديدٍ أو قديم...

أما أنا فقد احتجتُ جداً لذلك اللّقاء، لتلك الكلماتِ التي تخيّلتُ أنّها قيلت لي.. في الحقيقة لم أكن على درايةٍ كافية بأنّي سوفَ أنتظر الكلماتِ كلَّ هذا، بأنّي سوف أنتظر أن تقالَ لي في السماء..

وصلت أمي إليَّ.. بينما غابَ زوجي العزيز وغابت معه عائلتُه في موقفٍ غريب جداً... حينها لم تكن هذه هي المشكلة بحدّ ذاتها، لأنَّ المشكلة الحقيقيةّ في ذلك الوقت كانت انكشاف حالي أمام عائلتي... ما كان بوسعي تغييرُ أيِّ شيءٍ، فقط سلام، عرفتُ بعدَ عودتي لمنزلي بصحبتها، أنّها حاولت تجميلَ الموقف قدر استطاعتها...

"The real problem at that time was my exposure to my family…"

كذلك أميْ، صُدمتْ بشكلٍ مروّع للغاية! شعرتُ بصدمتها رغمَ محاولتها التظاهر بانعدام الدهشة... وبدأت تسألُ كثيراً، أسئلة من نوع "هنا كنت طيلة فترة غيابك يا حَرير؟." "أين زوجك أمير لما لم يحضر حتى الآن؟." بينما أنا أصمتُ وأنظر مطوّلاً إلى الأرض، عندما يُذكَرُ اسمُ أمير على لسانها.. أأكون أحبّه إلى هذا الحد؟. في نهايةِ ذلك اليوم احتضنتني أمي بعد نومِ جوى بمجهودٍ خرافيٍّ من سلام....

ورغم عودتي لأيّام الصغر في أحضان أمي، كان وجودها مربكاً بعضَ الشيء، لأنّنا نحن الذين مررنا لوحدنا بأوقاتٍ صعبة وعصيبة ليس من السهلِ علينا أن نتقبّل شريكاً بأماكننا تلك... لأنَّ أماكِنَنا تعرف بَوحنا الذي لم نبُحْ به، دموعنا التي ترقرقت كثيراً على وجناتنا، تعرفنا ونحن عراةٌ تماماً من كلِّ الأقنعة البشوشة والملابس الأنيقة والحضور اللّبق...

إنّنا نتعاملُ مع أماكننا وكأنّنا في علاقةٍ غرامية بحتة..، فإذا كنت على معرفة بأحدنا يا قارئي فلا تعتب عليه أو على تصرّفاته أو على غرابته أو على هروبه، وإذا كنت منّا، فلا تمتعض من العتابات لأنّها برفقة التّهم، التّهمِ الّتي ستُلقى عليك من كلِّ حدب وصوب..

في اليوم التالي مباشرة، اتصل بي أحمد مباركاً! لم أتعجب من معرفته لكن أدهشني اتصاله نوعاً ما، كما أنّي لم أفكّر بالطريقة التي علمَ بها لأنّه صديق أمير، فقد ظننت أنّه عرف من خلاله، وقد اخطأتُ في ذلك... بينما كانت أمي مع سلام في رحلةِ تسوّقٍ خُطط لها أن تكون قصيرة، لكنّها لم تكن كذلك، ذهبت أمي للتسوق ثم عادت ومعها السوق..

"My mother went shopping and then came back with the market…"

أخذَ صمت أبي مدّة أطول من مدّة صمت أحمد (ويؤخذ الغريب مثالاً عمّا يفعله عادةً ذوي القربى...)، إنّ أكثر ما علّمني إيّاه أبي هو الصّمت... لكنّ أمي وكما تفعل دائماً حدثتني عن اهتمامه، ثم بيّنت لي أنّه على تواصلٍ شبه دائمٍ معها مذ غادرت منزلنا القرويَّ في البلدة متوجهة نحوَ ركني البعيد الغريب ذاك... ولو حصلَ العكس وتبادلوا الأدوارَ لقام أبي بما قامت به أمي.. إنّهما هكذا منذ زمنٍ بعيد..

عشتُ أيّامها مثل المتّهمة بجرم قصة حب، وقفتُ داخل قفصٍ حديديٍّ بمساحةِ مدينة.. أتناولُ عقوبتي....
أتناولُ عقوبتي دونَ توقف، كلُّ شيءٍ صار عقوبة.. ففي بلادنا تلك، الشيءُ الذي لا ينجح؛ يتحوّلُ إلى عارٍ أو تهمة.. ثم ينفضّ الناس من حولك تباعاً، أو يبقى شخص ما، بطريقة ما، لأجل شيء ما... ثم تفهم بعد بعض الوقت، أنّها طبيعةُ الدنيا...

عادت أمّي إلى زوجها، بعد أن علّمتني كلَّ ما سوف يلزمُني فعلُه لأجل صغيرتي، أوصتني بالاعتناء بها والاتصال دائماً للاستفسار عن صعوبات التربية، عادت أمي وبالتأكيد حملت معها حقيقة حياتي إلى هناك، إلى غرفتي وشارع مدرستي وأهلي وربّما أهل أصدقائي..

بقيتُ أنا مع جوى، وبعضُ سلامٍ من صديقتي سلام.. ثم صارت الأيّام تمضي بسرعة رهيبة، لكن بتصوير بطيءٍ جداً..

أمير لم يأت! صارَ يطمئن على جوى أكثر من أمّها، نسي أو تناسى؛ أنّ الامّ في هذا العمر هي الخير.. كذلك صارت عائلتي، متجسّدة بأمي.

في أحد البيوت المجاورة، فتاة متزوّجةٌ أخرى.. تحملُ عبئ البؤس واليأس بشكلٍ آخر... حنطية البشرة، جميلة القوام، لم تتخطَّ عتبة الربيع العشرين من عمرها.. تعيش برفقة أمها بيد أن زوجَها السابق من أولاد الهجران أيضاً..

تعيش سلمى برفقة أمّها، تلك السيدةُ الخمسينية الجميلة الرقيقة الهادئة المتوازنة، التي صادفتها وأصادفها كثيراً في فناء العمارة، ولا تكلّ من قولها: "تفضلي إلينا يا ابنتي." تلك الجملة التي جعلتني أدقُّ بابها منهارةً دون خوف أو تردّد، قبل تحوّلي لأمٍّ جوى بساعاتٍ معدودة...

أم سلمى هي السيّدة التي لعبت دورَ أمّي في ظل بُعدها، وقليلاً في حضرتها، لكنها لعبته بشغفٍ وحنان، قبل أن تصل أمي وبعد أن رحلت... إنّها عاداتُ تلك البيوت.. كما أصبح من عاداتها أيضاً، وجودُ غائب عزيز، يلوّع بغيابه القلوب إذ يقوم بواجباته تجاه الأرض والتراب.. إنّ سلمى وأمها يلقبونه ب "الغالي"، هو أخو سلمى الأكبر...

أصبحنا نلتقي كثيراً، نسهرُ معاً لنقطفَ بعض حزن الليل، يهونُ على المرء حزنه وهو في صحبة.. هكذا صرنا ثلاث فتيات يستطعنَ إيقاظَ الحي من سكونه وكآبته... سلمى وسلام وأنا..

ومضت بي الأيام بين كتبي وابنتي ثم صديقتي وجارتي.. لكن بطريقة قاسية للغاية، لأنّك ربّما تبقى على قيودِ الضحك لفتراتٍ طويلة، لكن لا تستطيعُ نسيانَ ضياعك أو عدمِ الشعور به، ومهما اجتمعت مع من حولك، سوف تعودُ إلى ما وراء جلدك لا محالة..

ولكن..، شيءٌ ما دفعني للحياة، ربّما هو توسّلاتي الليلية للسماء، أو فكرة أمّي التي استطاعت اقناعي بها، وهي أنّ النساء لا يتعبنّ، تحضّرن كلَّ شيء ويتحمّلن... كنت أشعر بتلك الروح التي جعلتني فيما سبق أكتب رقماً ثم أسعى إليه! أصبحت أكثر ضحكاً، أكثر مرحاً، كما أنّني أحياناً أكثر حزناً...

قرّرتُ أن أتطوّرَ أكثر، ما زلت أذكرُ حتى اليوم، تلك الليلةَ التي اتخذتُ فيها قراري.. وعيني على جوى النّائمة في جواري، بعد سهرٍ طويل، غفوتُ يومها وأنا أتمتمُ في روحي..؛ أنني أستطيع..

ثم صحوت وكلّي همّة للسعي، لا أعرفُ مصدرها البتّة، وحين أدخلتُ جوى إلى بيتِ أمِّ سلمى، وانطلقتُ بعدها، بدأت رسائل الله تصلُ إلي، عبرَ أولئك الذين ابتسموا لي، والذين ابتعدوا عن موضع خطواتي المستقبليّة مصادفةً، لم يحادثني شخصٌ قطُّ طوال طريقي إلّا أنني وصلت بسرعة غريبة، بل إنُني لم أشعر نهائيّاً بثقل المشوار..

عدّةُ أشهرٍ مرّتْ بلمح البصر، كلُّ الاشياء على حالها إلّا أنا، وجوى قد كبرت واحلوّت أكثر بينما العذاب قد اشتد، لأنّي متروكةٌ بشكلٍ مقززٍ جداً، لم تتعبني قلة طعامي فقد اعتدت على ذلك، لكنّها أتعبتني كثيراً قلة طعام ابنتي... ملَّ كلُّ من حولي عدا أم سلمى التي كانت تفهمني من مجرّد النظر في عيني... كأنّها قد أوصيت بي! وبالاعتناء بابنتي...

حتى جاء انفرادنا يوماً فسألتها؛ "لماذا تساعدينني إلى هذا الحدِّ يا خالة؟"...

تخيّلتُ اجاباتٍ كثيرةً، مثلَ ما تعلّمه الحياة للبشر، أو منطق طرقِ التربية القديمة التي كانت تجمع بين سكّان حاراتٍ كبيرة كأنّهم أبناءُ رحمٍ واحد... أصابت تخيلاتي..، لكنّها جاءت مرفقة بمفاجأة غريبة؛ "إنّها حياتُنا التي ترعرعنا عليها في الصّغر يا ابنة أختي، فكيفَ إذا قامَ الغالي بتوصيتي، رغمَ كلِّ مافيه؟"

في تلك المرحلة كانَ الاضطرابُ يعلو في كلِّ رأسٍ من رؤوسنا، في كلّ زاوية من زوايانا، والناسُ تعيشُ على استنفارٍ لحظي، والخوفُ إذا سكن في مدينة حوّل أهلها لأشباح... ما لبثتُ إلّا أن سألتُها: "من هو الغالي يا خالتي؟ أتقصدين أخا سلمى؟"

استدارت إليَّ لتشهدَ على صدمتي قائلةً: " من قبل أن تخبريني إياها، أعرفُ قصّتك كاملةً يا حَرير..." ثم اقتربت حتى كادت تلتصقُ بي، وبدأت تحكي لي الحكاية..

عندما جئنا إلى هنا.. أخذ أمير البيت من أحمد مقابلَ إيجار شهري... ثمَّ وعند رحيل أمير، طلب أحمد من أمّه وأخته الاعتناء بي ومساعدتي دائماً لكن دونما أن تخبراننني بأنّه قد طلب.. وقد جدّدَ طلبه بعدما فشلَ أمير بمحاولةِ اسقاط الحمل! كذلك لم يخبرني أمير بأيٍّ من هذه التفاصيل ولم أعرف لماذا!!

لقد وقفوا بجانبي في مواقفَ عديدة، عندما أخبرتني أمُّ سلمى الخبر، بدأتُ أتذكر تلك المواقف تباعاً... لكنّني لا أعرفُ ما الغاية من توصية أحمد؟ أتكون وحدها الطيبة؟! أم أنّه أمير؟

أكثرُ ما علق في روحي تلك الليلة التي غابت فيها سلام لليوم الثاني على التوالي، وغابت كذلك قدرتي على فعلِ أيِّ شيءٍ حتى إطعام جوى! غابت سلام لمرضٍ ما قد أصابها، مضى اليومُ الأوّل ببعض الخبز بينما الثاني لم يكن ليمرّ أبداً لولا تدخّلُ أم سلمى ببعض الطعام... أشياءُ كافرة، كلُّ تلك الأشياء التي تتجاوز حدودَ التحمّل...

"The Infidel things are those which go beyond the limits of endurance..."

مرضت جوى، وإنّك تالله تصبحُ من أصحاب الهلوسة ثم تتصرّفُ كالمجانين، إن شعرتْ يدُكَ بحرارةٍ أكثر مما اعتادت عليه حين تحطّ على جبين ابنك.. هو الإحساس بأنَّ هذا الجبين منك ليس فقط لك وأنك المسؤول الوحيد في الأحوال الطبيعية عنه وعمّا فيه.. لكن هذه المرة لم أكن وحدي في الموقف، بل إنَّ كلَّ ما فعلته هو الجلوسُ بجوار سلمى، لأترك جوى بين يدي أم سلمى المتكفّلة بكلِّ شيء...

جلستُ بجوار سلمى، وقطعةٌ جديدة من قلبي همّت بمغادرةِ أمير...! القلوبُ التي تغادرُ بهذهِ الطريقة، تغادرُ إلى بقاعٍ قاصيةٍ جداً.. حيثُ لا يمكن لأيِّ أحد سواها الوصول..

استمرّت الحياة هكذا وأنا على حافّةِ كلِّ شيء.. كأنَّها ليست حياتي.. انقسم وقتي بين دراستي وابنتي..
الى أن أصبحتُ على أبواب الخروج من الجامعة.. وأصبحت فكرةُ الانتحارِ في مرتبةٍ مهمة، تحاربها فقط جوى دونَ علمِها بأنّها محاربةٌ من الطراز الممتاز...

إنّنا نحلم، ونقف على أبوابُ أحلامنا لا حول لنا ولا قوة.. لأنَّ الوصول إلى هذا الوقوف قد استنفذ فينا كلَّ شيء، وتجديدنا يحتاجُ لأناسٍ كفُؤ... فهمت بعد ذلك أنّ بعضَ الأيّامِ توضعُ في خانة العمر غير المحسوب.. ولو خرجت في تلك اللحظة الى العالم الخارجي، لاعتذرت لكلِّ المشاة عن وجودي.. ورسمتُ على أحد الجدران هيكلاً عظمياً كساهُ جلدٌ يبدو على ملامحه اليأس... أبشع الأيّام هي تلك التي تعاشُ دونما حب...

"The ugliest days are those that are lived without love..."

علاوةً على الشعور بأنَّ أحدهم قد قامَ بالأخذِ من حياتنا ليضعَ في حياة غيرنا! أصبحتُ أتمسّك بأشيائي، أقصدُ بالضبط ما أحاطَ أو يحيطُ بي عادةً... يبدو أنَّ هناك مسافاتٍ شاسعةً بين قراءةِ الجملة السابقةِ وتجربتها.. لأنَّ الذين يعيشون هذه العلاقات، محطُّ سخرية للكثيرين... أنا أيضاً كنتُ أتساءل عن سبب حزنِ شخصٍ قد فقد كأسه، يوماً ما...

استدرتُ لأشاهدَ الجهةَ اليسرى من سريري، وجّهتُ نظرةَ ما قبلَ النوم الى الحائط لكن لم أستطع النوم، ولا الاسترخاء أو السكينة... أصبحَ الرخاءُ شيئاً أكبرَ من طاقتي...

أمّا الحصول على وقتٍ للنوم، فهو من الرّفاهيّةِ المطلقة ها هنا... في بيته الذي غابَ عنه كثيراً، كثيراً جداً.. ولأنَّ الحبَّ هو أغلى ما نملك أحياناً، عندما نفقده، نشعرُ وكأنّنا فقدنا كلَّ شيءٍ دُفعةً واحدة... ثم نكبرُ ونعي أنَّ السرّ ليس في الحبِّ بحدِّ ذاته، بل هو فيما يتضمّنُه الحبُّ من أمانٍ واحتواء...

"As for getting time to sleep, it's an absolute luxury here..."

ويمرُّ العمر هكذا عبرَ عدّةِ وقفات تلخّصُه، نرمق أثناءها الأمس، ثم نشاهد اليوم، ويخيّلُ لنا الغد، ثم من خلالها ننضجُ أكثر، وننضجُ حتى نموت... أراه ملخّصاً جيداً للعمر، وبرغمِ ذلك فإنّ العمر محكومٌ بالأمل..

هذا الأمل الذي أعادَ رسم ابتسامتي القديمة عندما أخبرني أمير بأنّه سيعود.. أذكرُ تلك المكالمة القصيرة بشكلٍ كامل، أذكرُ قفزاتي وعناقي لجوى... وصرخاتِ دمع سال من عينيّ بغزارة، معلناً مغادرتي مرافئَ الحزن...

عادَ أمير دونَ إيضاح سببِ عودته، ولربّما لم يكن هناك أيُّ سبب... لكنّنا نحنُ أصحابُ الحبِّ الأعمى لسنا بحاجةٍ للأسبابِ أو التبريرات، ففي داخلنا الكثيرُ الكثيرُ منها... إنّها القلوب!.

رافقهُ أحمد أثناءَ عودته.. لكنّهُ بدا غريباً، فبالرُّغم من كلّ وسائلِ التّواصل الحديثة والمتاحة، أخذنا بعضنا عناقاً عندما دخل البيت، لكن بعد ثوانٍ فقط، شعرت أنّهُ عناقُ الغرباءِ لبعضهم أثناءَ تعزيةِ شخصٍ غريب قد فقده أيضاً أحدُ الغرباء... "هذا ليس أمير" صرخ قلبي!

أمّا جوى، فكان لها نصيبٌ كبيرٌ من البكاء آنذاك.. ولم تهدأ حتى تدخّلت سلمى لأخذها بعدما أخبرتني وهي على بابِ البيت أنَّ الغالي قد عاد... يبدو أنَّ صوتَ جوى قد وصل لها ونامت في أحضان ذلك البيت اللطيف الهادئ..

غفوتُ بجانب أمير بعد ألمِ ذلك البعد، ثم ألمِ العناق.. وفي الحقيقة مثّلت النوم أكثر من كوني نائمة.. وعندما نامَ أمير دون أيِّ تواصلٍ فيما بيننا، عرفتُ أنَّ حياتنا معاً قد انتهت تماماً... أحياناً تكونُ الحقيقةُ أمامنا لكنّ إرادةً داخليّةً تجعلنا نتحاشى النّظرَ إليها، وتعيشُ معنا دون أن نشعرَ بها، هذا الشيء الذي نحمله في جوارحنا عندما نكون على قيد الحب، يجعلُنا ساذجين للغاية، إلّا أنّنا نستمتع به جداً..

"When we are in love, it makes us so naive, but we enjoy it so much…"

اندثر الأملُ الذي عشتُ معه منتظرةً وصولَ أمير.. باتت أجزائي المتبقيةُ منّي على قيد الهوى، تستعجلُ الرّحيلَ أكثرَ فأكثر.. منذُ ذاك الوقتِ صارَ حبّي لأمير مجرّدَ إلحادٍ كاملٍ بحقّ نفسي لا أكثر ولا أقل...

وفي الأيّام التالية، في ظلِّ انشغالِ أمير بالبحث عن عملٍ نقتاتُ منه، تعرّفتُ بشكلٍ أعمق على أحمد، وبدأتُ بواسطته أستشفُّ خدعةَ أمير وما أخفاهُ عنّي، وحتى هذهِ اللحظةِ لا أعرفُ أتوجَّبَ عليَّ شكرُ أحمد لما فعلَ بصدقه أم شتمُه لأنّه فعل...

تدهورت صحّةُ الخالة أم سلمى، وبالتالي.. جاءِ الوقتُ المناسب لأردَّ المعروف بالمعروف، هكذا كانت تربيتنا وعاداتنا، هذا ميراثُ الآباءِ والأجداد أيضاً.. لجأتُ إلى أستاذتي في الكلية، الحمد لله أنّهم يذكرون تفوّقي أحياناً، وبمساعدةِ سلام استطعتُ تقديمَ العون لأحمد وسلمى.. لم تدم وعكةُ أمّ سلمى لفترةٍ طويلة، لأنّكَ إذا شهدت ذلك ستشعرُ أنَّ الوعكةَ قد أصابَت سلمى وجارةَ سلمى بل ربّما حارة سلمى كاملةً...

كلُّ النسوة هناك جئن إليها اطمئناناً وتشجيعاً، مشهدٌ مثلُ هذا لا يحصلُ كثيراً في المدن الكبيرة.. لكنَّ المحبّة تستطيعُ صناعته بقوّتِها، لن أنكرَ تأثّري حينها بمرضِ أمّ سلمى، كونَها أحدَ المتّكآت القليلةِ الخاصّة بي، حمدت الله كثيراً على عودة عافيتها، دونَ أن أعلم أنّها ستكون طوقَ نجاتي يوماً ما، من جحيمِ أمير الذي ألقى كلَّ شيءٍ على أكتافي، حتى فشله في إيجادِ عملٍ مناسب!

لا أعرفُ لماذا يفعلُ الرّجالُ ذلك، ربّما أصبحَ هذا من عاداتهم وتقاليدهم هنا في بلادنا.. كلُّ الأشياء اللاتي يقومون بها، بطريقةٍ أو بأخرى، يلقى لومها على نسائهم، وخاصّةً في حضرةِ الفشل، إلّا ما ندر..

أنا السببُ مثلاً لعدمِ استطاعةِ زوجي إيجادَ عملٍ في العاصمة! وأيضاً لا أعرفُ لماذا أحبّني أمير، أو لماذا تزوّجنا، أتذكّرُ تلك الأيّامَ فأتساءلُ عنها، دون وجودِ أيِّ أجوبةٍ مقنعة أو مبرّرات.. يا ليتَ أبي جرَّ جسدي من شعره بدلَ الصمت..

أصبحتُ أذهبُ لأقضيَ وقتاً طويلاً برفقةِ سلمى في بيتها، وبالتّالي برفقةِ أحمد الذي بتُّ أشعرُ بإشفاقه على شبابي الضّائعِ من خلالِ عينيه، أذهبُ مثلَ مجرمةٍ هاربةٍ من وجه العدالة! لأدفعَ ثمنَ حبٍّ بهت، وإصرارٍ جعل منّي كتلةَ لحمٍ نادمة... رغمَ كلِّ شيءٍ فكّرتُ بأنَّ أمير تغيّر من ناحيتي، أوليس قدومه كان لأجلي أنا وجوى؟. بقيت الفكرةُ تأتي وتذهب بين الوقت والآخر..

مشت الأيّامُ بعد أن صارت متشابهة جداً، وتحسّنَ الواقعُ بعضَ الشيء كأنَّ كلَّ شيءٍ قد عادَ إلى سابقِ عهده، ثم غدوتُ أنا أكثرَ تفاؤلاً، وأكثرَ حماسةً، يحصلُ ذلك في الحياة، بعضُ الأشياءِ تكونُ حلوةَ الطعم، لا بدَّ من زاويةٍ يعيشُ فيها السكر... مرّ الوقت الذي أتذكّره الآن أثناء كتابتي على أنّهُ بضعةُ ثوان لا أكثر، لكنّه في الحقيقة يُقدَّرُ بالأيّام والأسابيع...

تركتُ كليّتي بعدما انتهيت منها، أو انتهيت فيها، أو انتهت هي مني، يوماً ما، سنصبح تماماً غرباء، مع كلِّ الأشياء التي ما كنّا معها كذلك.. مع الأماكن والأشخاص والأفكار والأحلام.. ثم مع أنفسنا..

"One day, we'll all be strangers…"

ودّعتُ زملائي وزميلاتي، أصدقائي، أساتذتي، وإداريّ الكليّة الذين كانوا طوال هذا الوقت يقدّمون الخدماتِ لنا، على أن نلتقيَ حينَ تسمحُ لنا الحياة.. في حضرةِ الدّمعِ الحاضر في عيني وعيون سلام المحمّرة، التي وقفت في بهو البناءِ العملاق، ثم أمامَ بابها، تلتقطُ الصور لي وتخبرني كم أبدو جميلة بفستانها الذي لم تعلم مدى جماله قبلَ أن أرتديه.. أفهمُ الآن جيداً ما الذي حاولت سلام القيام به آنذاك!

اعتنت أم سلمى بجوى وقبلت ببقائها لديهم لوقتٍ طويل، على أنّني سأكونُ في بيت سلام بالنسبة لأمير، بالفعل كنت هناك قبل خروجنا إلى الكليّة وحضور ذلك الحفل الجميل.. كذلك حضّرتْ تلك المائدة الرّائعة ببساطتها وفاجأتني بها بعدَ عودتي... عدنا معاً أنا وسلام، فقط لأنَّ أمير يعلمُ بأنّها ستوصلني...

ثم عادَ للمنزل دونَ أن يجدنا فيه، فانتظرَ ولا أدري كيف كان انتظاره، وأيضاً كيف استطاع شمّ رائحة الفرح المنبعثة من قلبي، ليسألني عنه بعدّة طرق، إلّا أنّ الجواب تشبّث بحنجرتي ولم يخرج... فقط عندما بدأ المنزلُ بكلِّ ما يحتويه مع أمير يدور...

كلُّ ما أستطيع تذكّره هو اللونُ الأحمر الذي سال مرافقاً للدوران، ثم صوت سلمى وأمها وأحمد الغالي، بصراخٍ ضخم، أشياءُ قد تحطّمت، أشياءُ تتحطم، بكاء جوى البعيد، ضجيج هائل ومنادٍ غريب ينادي باستمرار: ابتعدوا، ابتعدوا.

ثمّة يدٌ دافئة تمسك بيدي، رأيت ملامحاً تشبه ملامحَ أم سلمى ثم تأكّدت من أنّها الواقفة الممسكة بيدي، حاولت أخذ وضعية الجلوس لأستوعب المكان، إلا أنّها أوقفتني قائلة: "ما زلت متعبة يا صغيرتي، نحنُ في المستشفى." عدت إلى استلقائي متسائلة عمّا حدث، فضحكت لي، وجاء أحمد إليها يسألها: أصحتْ؟.

ما كنتُ لأتخيّلَ يوماً أنّ يد أمير سوف توصلني للاستلقاء على سريرٍ مُمهّد لإسعاف مرضى الطوارئ، لكنّها الحقيقة! هو الحبُّ حقاً حياة أُخرى، وقتئذ نمتُ مكان سلمى في بيتهم بعد عودتنا وسلام لم تفارقني، بينما ذهبَ أحمد إلى منزلي ليبقى مع أمير، لا لمواساته، بل فقط لراحة وجودنا، ألا حبّذا الغرباء!

كانت ليلةً قاسية للغاية، وبتشجيعٍ كبيرٍ من الشاهدين عليها، تركتُ لأمير حياته، ورحلتُ بصحبة حقيبتي إلى حياتي، بعد أن رُتبت باهتمام سلمى، على وقعِ حديث سلام الغاضب عنّي وعن زوجي.. ولكن كيف نُقنعُ أولئك الذين لم يولدوا بعد بأنّهم يعيشون حياةً أفضلَ من حياتنا؟

"But how do we convince those who are not yet born that they live a better life than ours..?"

طلبتْ أم سلمى من ابنها أن يتحضر لمرافقتي، ثم التقت بزوجي لتخبره (على حسب قولها) بأن أحمد سيسافر معي، لكنّها عادت مصطحبةً إياه قائلة بأنّهُ سوف يسافرُ معي عوضاً عن أحمد...

للأمّهات طرق مبتكرة وغريبة في الإقناع، عرفت بعد ذلك أنّها قالت لأمير جملةً واحدة فقط: "ستذهبُ لإيصال حَرير، أم أرسل معها أحمد؟".

تبدو أفكارُ سلام وسلمى لازالت أفكارَ إناث حالمات، ردودُ فعلهنَّ تجاهَ أمير كانت قاسية، لم تستطع سلام تقبلها، ولها العذر.. أمّا سلمى كانت تقومُ بكلِّ أفعالها مثلَ أيِّ امرأةٍ آليّةٍ لا حسَّ لها، بدت مدهوشةً بحقّ.. بينما غلبَ الصمت على أحمد...

أما نحن فقد ذهبنا فعلاً إلى قريتي الأصل، لكننا لم نتحدث طوال الطريق، إلّا بكلماتٍ تقالُ للضرورة، خرجت من فناء البناء، إلى سيارة التاكسي، ثم ذلك الباص الطويلِ المصمّمِ بطابقين، ثم سيّارةِ أجرةٍ مرّة ثانية، ثمَّ الهواء الطلق والعليل، هكذا حتى وصلتُ بيت أبي، أمّا لحظةُ وصولي فكانت معركةً كبيرة بيني وبيني، وقفت ثمَّ أخذتُ نفساً عميقاً دونما قرعِ الجرس، تنهّدتُ أنا وتنهّدَ قلبي، وجسدي النحيل المتهالك من أثرِ الحياة الأُخرى المرتبطةِ بالحب، وربّما قلبُ جوى التي كانت على يدي، وقفتُ هناك مثل أيِّ عابرة سبيل، ضربت الباب ضربةً ثم شزرت بنظري نحو أمير فما رأيته!.

"It was a big fight between me and me…"

عرفتُ حينها أنّي جئتُ أتسوّل نفسي القديمة لأرمّمَ بها ما استطعتُ نفسي الجديدة، على باب بيت عائلتي، وبلا حبٍّ في داخلي..
أغمضتُ عينيَّ لبرهةٍ من هذا الزمن القاسي، لتمرَّ قسوتُه بمشاهدِ زفافي الذي حوّلني، من حَرير ذات الطاقة، إلى حَرير ذات الحزن...

ولولا بلوق الباب يومذاك، لبقيت حتى اليوم واقفة مغمضة أحمل ابنتي، وحقيبتي وحدها بشموخ رأس محارب عتيق تقف بجواري، بُلق الباب، والمعطف نزل على أكتافي، مع آثارِ دهشةٍ نبتت نبوءة بحادثٍ جسيم جاء بي إلى هنا، سالَ الدمعُ على وجنتي، أُخذتْ جوى، وحُملتْ حقيبتي، دخلتُ بيت أبي، وكأنّي حزن بيت أبي الأبديُّ وحزن أهله...

"It is as if I am the eternal grief of my father's house and the grief of his family..."

عدّة لقاءات جمعتنا أنا وأمير، بوجود أبي وعمي أحياناً، للمرأة هنا ماهيّتها الخاصّة بشرقيتها، فعليها التودّدُ والانجراف مع زوجها كيفما شاء لها... ثمَّ التنازلُ فالتنازل والتنازل، حتى ينتهي عمر الكرامةِ بحادثة سير كلامية، بعدَ حدودِ الصبر، على مدخل زقاقٍ ضيق تموتُ فيه أو تعتاد...

تركتُ كلَّ شيء، التحقتُ بموكب الأسى، وصارَ صدري ملعبَ فريق الألم، مرتدياً ملابسه الزاهية المصنوعة من لحمِ جلدي الأبيض، وبأحذيته المُسمّرة، دقَّ أرض ملعبه في تمارينَ يومية...

وبتشجيع والدي دخلتُ عالم الاختصاص، أثناءَ محاولاتٍ مستمرّةٍ لجمع شتات عائلة صغيرة تكوّنت بقرارٍ اتضح الآن أنّه كانَ متسرّعاً! لكنّنا بغيابِ مياه الشرب نروي عطشنا بدموعنا، وبغيابِ الطّعامِ نأكلُ لحمَ أكتافنا، نحنُ هكذا، وإن صحَّ التعبير؛ تجعلُنا الدنيا هكذا.. يستطيعُ الرّجالُ الفصلَ بينَ الأشياءِ والأشياء، وتلعبُ تلك القدرةُ الغريبة عن الطّبائعِ الأنثوية، دوراً جميلاً في استمراريّة الحياة ضمنَ الحدِّ الأدنى للخطورة...

بالطبع، فشلنا في جمعِ شتاتنا، لأنَّ الرّغبةَ لم تتوفّر بالشّكل الكافي لتعودَ بنا، والتنازلُ هو في حقيقةِ الأمر بضعةُ خطواتٍ في مسيرٍ قصيرٍ نحو المذلّة... ربّما لو كنّا نملك القدرة على جمعِ هذا الشتات لَما وصلنا إليه هكذا...

يصعبُ عيش تلك الليالي، عندما تمتلئُ الساعاتُ بالخوف، ويفيضُ.. ينعدمُ الأمانُ في ساحة إعدام، نُصبَتِ المصقلة فيها لأصحاب الجرائم الكبيرة! فتنهضُ من فراشك الدافئِ أثناء غفلة الليل عنك، لتتمشّى في منزلك على رؤوس أصابعك، أملاً بأن ترتطم بأحدهم فيسقطَ منك شعورُك المحمولُ على أجفانك بالوحشةِ، ثم تخبرهُ أنّك لست على ما يرام، فتراهُ يقيمُ الدنيا لأجلك، يضرمُ النور في كلِّ الأضواء الخافتة محضّراً بعضَ الأجواء الرومانسيّة الهادئة الأخّاذة التي توصلك لعناقٍ طويل.. أن تفقدَ الأمان..؛ يعني أن تمضي وتتناسى طريقَ العودة...

"To lose safety. It means to go on and forget the way back... To lose safety. It means to go on and forget the way back..."

***

نهضتُ من فوضويّتي منتفضةً، شامخةً برُغمِ التعاسةِ المستلقية على جبينيَ العريض.. وبينما جوى في زيارةٍ طويلة للغيهب أمير، رتّبتُ أمورَ السفرِ للالتحاق بمكاني المحجوزِ كطبيبةٍ مقيمةٍ أرادت استكمالَ تعليمها، وعلى كتفي بصماتُ يد أبي، التي ما اختفت مذ ذاك الوقت وحتى اليوم، سافرتُ نحو العاصمة مجدداً، حاملةً معي الكثير من الاحتياجاتِ الخاصّةِ بي، كإيماءاتِ أبي المتكررّة؛ أن اذهبي يا ابنتي وأكملي الطريق، كذلك تمتمات أمي ودعواتها؛ أنّ الأمانَ هو أمانُ الله عزّ وجلّ..

نهضتُ عبرَ صراعٍ طويلٍ دارت معاركهُ تحتَ عظامي، إنَّ المرحلةَ الأخيرة في الهوى، هي الزُّهدُ في اختياراتنا، أن نرحلَ نحوَ أنفسنا، تاركين خلفَنا بعض حياتنا، بعضَ كلماتِنا، والكثيرَ من ندباتِ جراحنا كذاكرةٍ حيّةٍ لما قد كنّا عليه... ولكنّنا نرحلُ دونَ أدنى إحساسٍ بالذنب! لأنّ الآخرَ كان مجرماً بحقّ الإحساس.

"We leave without the slightest sense of guilt!
Because the latter was a criminal towards feeling…"

ليتكَ أتبعت رفضَك... بسحب جلدي يا أبتِ على إسفلت هذا الشارع الشاهد على كلّ شيء منذُ سنواتِ مدرستي حتى الآن! حتى ما أبقيتَ منه إلّا أثر دمٍ تغسلُه السّماءُ بغيثها..

وقصصتَ جذرَ عِنادي أنا ابنتك التي حلمت بها وصنعتها على ترتيب هواك لترتّبَ بها حياتك أكثر... ثم راحَت تضربُ الحلم برأسها حتى انفجر... انفجرَ الحلمُ يا أبتِ، وانفجرَ الرأسُ يا أبتِ...، لتأخذَ برفضِك شهادةَ أبوّةٍ ليس يستحقّها أمير أبداً، أجدّدُها لك طوال عمري وعمرك..

ومن الأفضل لنا أن تقومَ الجهاتُ العليا بإحداثِ لجانٍ وفحوصاتٍ مستمرّةٍ، يخضعُ لها الجميعُ لتجديدِ رُخصِ الآباء والأزواج، مؤكّدةً بذلك مسيرَ كلِّ عائلة! كي لا ننتميَ نحن وأمثالنا لمعشر المكتئبين الخوّافين المجرمين الذين يقاتلون أنفسهم بأنفسهم... أوَتدري؟ أعرفُ أنني دمّرت نفسي بيدي لا بيدِ غيري..

"Do you know? I know that I destroyed myself with my own hands, not with the hands of others…"

استقبلتني سلام التي ما انفكّت تبدو سعيدة للقائي!.
"لن أعطي سعادتي بعودتك لأيِّ أحد.."

ونبقى لعبةً في يد دنيانا، يتقاذفنا الشغف، ربّما لم يكن غيابي بالطويل لكنني عندما رأيتُ سلمى وقبّلتني شعرتُ بأنّها افتقدتني، إنّ طريقة اللقاء تشعرنا بالكثير من الإحساسات على اختلافها...
بينما أنا فما كان في داخلي سوى الإحباط، وجملٌ يتردّدُ صداها بأنّي يجب أن أكونَ أكثرَ شجاعةً وأكثر تحملاً..

الخالةُ أم سلمى حضّرت ما يمكنُها تحضيرُه، أو ما باتت الظروفُ تمنحه، هكذا أصبحت العادات، لكن الموائد تلك، مملوءة بالمحبة، رغمَ أنفِ الرّعبِ المحيط بقلوبِ أصحابها... هل جرّبتَ في حياتك الجلوسَ على مائدةٍ طهتها القلوبُ لا الأيدِي؟ إنّها كذلك، مثل أن تناديك الحياة...

زرتُ الوحدةَ الصحيّة التي أطلقوا عليها اسمي، "سوف يصلكم فريقُ التخدير عمّا قريب فتهيؤوا لإنجازِ معالجاتكم المتأخرة" كانت هذه كلمات الرئيس للأطباء والمقيمين في الوحدة...

أقمت هناك ما لا يقل عن أحدَ عشر شهراً، حضرتُ الكثير من العمليّاتِ الجراحيّة في اختصاصاتٍ متعدّدةٍ، وفي النّصفِ الثاني من تلك الفترة بتُّ أدخلُ غرفةَ العمليّاتِ كلَّ يوم، مثلما يدخلُ التّائهُ مقهىً على قارعةِ الطريق...

لكنَّ نسق التغيُّرات الذي سكنني كانَ على ارتفاعٍ مستمرٍّ، ما توقّفَ البتّة، فقد صرتُ أكثرَ فلسفةً وأكثر حباً بالتأمّل، أكثرَ ارتياحاً للغرباء، أكثر اندماجاً بالمحيط... والجميعُ يعاملونني وكأنّهم سمعوا خبرَ انتحاري ثم وجدوني على قيد الحياة، فإذا سمعتَ خبر انتحاري لا تصدقه، انتحاري كذبةٌ مثلُ وجودي، مثل حبّي، ومثل حبيبي..

مثلُ تخديري لمرضى العمليات الجراحية ودفعُهم لعيشِ ذلك الفاصل الحياتيّ بلا وعي وبلا إحساس، ثم مراقبتهم، وإنعاشُهم لأخبرَهم أنّ الفاصل قد انتهى؛ فلنعُدْ إلى العذاب...

"My Suicide is a lie like my existence, like my love, and like my beloved…"

لكنَّ تلك الليلةَ التي أوصاني رئيسي بالاهتمام بالغرفة السّابعة للطابق الثالث كانت ليلةً مختلفةً... فبينما كنتُ أهون على قلوبٍ كثيرة، وأسندُ كتفي على جدارِ القلق، حيثما كانَ نومي، وبكائي المدفونُ تحتَ جلدِ وجهي، هزّ روادُ جذورَ قلبي...

بعدَ سنةٍ كاملةٍ من ركودَ الدّمِ في أوعيةِ جسدٍ يظهرُ ويتصرّفُ كأيّ جسدٍ آلي، أحدهم أخذَ براءةَ اختراعه... في ظروفٍ معيشيّةٍ تشبهُ إلى حدٍّ بعيد حياة الخفافيش! وهذه ليست إبداعاتِ سردِ قصّة، بل بعضَ الحقيقة بكلماتٍ بسيطة...

رغم هروبي من رواد، وتجاهلي له، استطاعَ فكَّ شيفرةِ اختبائي.. يصيرُ واحدُنا هشّاً حدَّ الانكسار أمامَ نفخةِ هواءٍ فموية، تُستعمَلُ عادةً لتبريدِ طعام الصّغار..

لا أعرفُ لماذا نتوقّعُ الوجعَ من كلّ الأشياءِ عندما نصبحُ ضحيّةَ عاشقٍ قد عبثَ بأصولِ الهوى وقواعدِهِ، إن كانَ لهُ قواعد، ونحاولُ دائماً اختصار عمرِ الوجع.. ثمَّ يأتينا الألمُ من حيثُ لم نختصر...! عندما خرجَ والدُ رواد متعافياً، شعرتُ بالحزن، لكنّ صدفةً جمعتنا في ممرٍّ أبيضَ طويلٍ جداً، جعلتُهُ يحدّثني بكلماتٍ لطيفة، وأردُّ عليه بطريقةٍ غريبة حيثُ قمتُ بسؤاله؛ "ماذا تفعل في ديارنا؟"

- جئت أزورُ طبيبةَ أبي لعلّها تستطيع تخدير فؤادي.
- أهلاً بك، وصلتَ إذاً.

كان روادُ لطيفاً جداً! لكنّني حدثته من خلفِ قضبانِ الوحدة رُغمَ وجودِ بعضِ القلوبِ المحبّة، تلك القلوبُ التي جاءَ بها القدر، أفكّرُ الآنَ في تلك الأيّامِ يا لهُ من رعب! أن يمتزج مشهدُ جسدٍ مفتوحٍ بفكرةِ خوفِ إنسانٍ وتفكيرِه المستمرّ بالموتِ وحيداً، وبوجهٍ جعله الحبُّ يكبرُ بسرعة فائقة تفوقُ حتى لسرعة الضوء..

بعضُ أجزاءِ حياتنا أكبرُ من أن تصفَها الكلمات، أكبرُ من أيّ تعبيرٍ مهما بلغَ من بلاغة... فقط التدقيقُ على تفاصيلِ وجهٍ صامتٍ، يمكنُهُ إيصالُ المبتغى..

"Some parts of our lives are more than words can describe…"

شجّعني ذاك الفتى على تغيير مكاني، أو تغيير اختصاصي، ثمَّ دفعني خوفي من تجاعيدِ وجهي إلى عالمِ الجراحة، بالضبط التجميليّة، حبّاً بمساعدةِ أولئك الذين يتكبّدون خسائرَ كبيرةً في حياتهم، فتبدو الخسائر على وجوههم الحقيقة، لا فقط على وجوه أرواحهم الرازحة تحتَ العبء...

روادُ كان شخصاً متحمّساً متخماً بالاندفاع واللّباقة... إنّ الأحاديث العائدةُ للماضي تجعلنا نشعرُ بأنَّ هناك شيئاً ما لا يطاق، أيضاً سرعتنا في الانتقال إلى الذكرياتِ الكئيبة تشبهُ تلك التي يفعلُها الضوء إذ يسير...

لا ضمانةَ في الحبِّ، نحن نحبُّ ونترك الوقتَ الذي سيمضي لا محالة، يعلّمُنا أو يعلّمُ فينا، اتضح لي ذلك بعد تجربتي مع أمير، بينما اقتحام رواد لي كانَ نعمةً على عكسِ نقمتي السّابقة..

"There is no guarantee in love.."

روادُ، دفعَ بي إلى الحياة، وأوقدَ داخلَ صدري شعلةَ التحدي، أمّا رئيسي فأخذني بطيبة أبٍ مستفسراً عن سببِ انتقالي، ومحذّراً؛ بأنَّ الجراحة حياتها مختلفة.. أخبرتُه حينئذٍ بمخاوفي، وأصررت على انتقالي حتى استطعتُ إقناعه بالموافقة.. بل وقدّمَ لي المساعدة بأكثرِ من الموافقة.. بعضُ أساتذتنا يبقون في داخل ذواتنا.. "أنت طبيبةٌ مميّزةٌ يا حَرير، أتمنّى لك النّجاحَ الكبيرَ في المستقبل"

لا شيءَ أكبرُ من إرادةِ الإنسان، حينما يريد.. إنَّ الله ينتظرُ فعلَ العبدِ وحسب الفعلِ يساعده، من الصّعبِ جدّاً أن تأخذَ فتاةٌ مكاناً لها في عالم الجراحة التجميلية، فالفكرةُ السّائدةُ هنا هي ألّا تثقَ بطبيبة، وألّا تثقَ بتاء تأنيثٍ ساكنة أو متحرّكة أو نائمة...

"Nothing is greater than the will of man, when he wants…"

الحبُّ مجدّداً في حياتي، ولأكونَ أكثرَ دقّةً هو ليس الحبُّ بشخصه إنّما هو التعلّق.. التعلّق بذاك الرّجل الجميلِ الذي وضعَ يده على هشاشةِ أنثى مستفسراً عن سببِ ذبولِ العيونِ الخضر تلك..

كانّ بالفعلِ شيئاً مختلفاً للغايةِ عن سابقه.. يستطيعُ بعضُنا تشجيعَ البعض الآخرَ دوماً، فماذا سوفَ يخسرُ أمير لو أنّه قبّلَ يدي إذا حملتَ له حلوى العيد، كما فعل رواد! ما الخسارةُ لو قال لي أنّ عينيَّ جميلةٌ رغم تعبها، لا أنّ التعبَ ذهبَ بحلاوتها...؟

كانَ الأولى بذاك العزيز؛ أن يقومَ بصقل براءتي، واحتوائنا وتحضيرنا للحياة ومساندتنا أثناءها.. أيُّ رجولةٍ تلك التي نقصَت إذ حملت أنثاها...

كلُّ تلك الأشياءِ وغيرُها قامَ بها رواد، واستمرَّ حتى أعادني إلى الجلوس حولَ طاولةٍ يفضحُ النردُ أسرارَها، حينما أصبحتُ أنا في مكانٍ جديد لدراستي، وكانَ وحدَهُ بالإضافةِ للسّابقين الثابتين خلفَ أكتافي، ويوم أخبرته أنَّ أمير يحاول الرجوعَ إليّ أو استدراجي إليه مجدداً، لا أعرفُ التعبير المناسب لتلك الحالة؛ أجابني رواد بسؤال حزين: "هل ستعودين؟"...

بالطبعِ لن أعود، لا لأجلِ روادَ فوقَ معزّته في قلبي ووضوحها على وجهي، بلَ لأحمي نفسي من خوفي، وأكبرَ فأدعم نفسي، وأصلَ في الغد لاحتواء براءتي.. لن أعود، حتى إذا توسّط أمير الدّنيا بما فيها، فمازال وجهي يؤلمني، وجلدي منكمشاً على نفسه محمرّاً، مخضرّاً، من ذكريات نزفهِ وكدماته..

تصبحُ العودةُ أكثرَ فتكاً إن عدنا بأقدامنا إلى ما كنّا عليه، ومَن اعتاد على الغفران لا تصح روحه مِن التنكيل بمَانحه الغفران، أنا من أولئك الذين غيّرهم القهر لكن بتأنٍّ شديد جداً، والذين غيّرهم القهرُ فشلوا بالعودة رغمَ عودتهم وصراعهم الطّويل الأبديّ مع الحنين، لأنَّ القهرَ مثلُ الحزن، مثلُ الحبِّ، له بصماتٌ مميزة، والفخّارةُ المكسورةُ لا تحفظ أيَّ ماء..

"I am one of those who have been changed by oppression, but very carefully…"

لم أخبر رواد بقراري، لكن أظنُّه عرفَ ذلك؛ ربّما استنتجه بطريقة ما، بالتأكيد لم أخبره ولم أترك أيَّ كلمةٍ تتزحلقُ عبرَ لساني وثغري إليه... كانَ فرحتي.. وحتى هذه اللحظة، ألقّبُ أيامَهُ بأجملِ أيّامِ عمري التي دعوتُ للإله لأجلها..

لا شيءَ يمكنُهُ السّفرُ كالكلمات، كالصلواتِ والدعوات.. إنّنا نقتربُ من السماء حينما ندعوها، استمرّت الأيّام بمتعة شديدة، كلُّ شيءٍ الآن اختلف، حتى نقاشُ رواد مقارنةً بما كانَ عليه النقاشُ أيّام أمير، أكثرُ ما أستطيعُ تذكّره هو شعوري بالمصالحة، واللّبنِ المذكور بجملِ الرّضا بعدَ أيّ زعل، حتى اقتنعت يوماً أو كدت، بأنَّ رواد يطعمُني إيّاهُ فعلاً دونَ أن أراه...

كلُّ تلكَ الأشياءِ دفعتني لتقديم استقالتي من حياتي السّابقة، من قصّةِ الشيءِ الّذي فكّرتُ بأنّه الحبُّ، هل يستطيعُ المرءُ البدايةَ من جديد؟ نعم، يستطيع، عندما يؤمنُ بنفسهِ أوّلاً، ثمّ يجدُ من يؤمنُ به وبقدراته، آنذاك يتكبّلُ الخوفَ في داخله، ويتكلّل بثقةٍ تامة أنَّ الأشياءَ المخيفةَ سوفَ تمرُّ في كلّ الأحوال... هذه هي الحياة..

"Can one start over? Yes, he can.."

أعرفُ أنني قمتُ بتدمير نفسي بيدي لا بيدِ غيري، وأعرفُ أنّ الوهم قد أكلَ من ذاتي وشرب حتى ارتوى، ولكن إذا تركتُ له استمراريّته، فلن يبقي منّي أيّ شيء.. هذا جزءٌ يسيرٌ من الدوافعِ التي نمتْ داخلي، بمساعدة رواد وسلام، وأيضاً سلمى وأمّها اللتان زرتهما كثيراً..

وسيبقى ذاك الوخزُ في قلبي، يكرّرُ الصّراخَ على الفتوق؛ أنْ أين أولئك الذين جاؤوا بنا إلى هنا، وسأبقى أشيرُ إلى ذلك الفتى على أنّه القصّةُ الخاصّة بي، والخيبةُ التي تعيشُ في عروقي... مثلَ أيّ امرئٍ ينظرُ إلى تاريخِ موت آخرٍ يعنيه، فيكتبَ تحته: يا لها من أيّامٍ بائسة!.

وستبقى تلك الخيبةُ التي سوف أكلّمُ كلَّ الناسِ عنها، هي دافعي لإطلاقِ سراحِ أصابعي وعنَانها في تغيير أساساتِ الجلود، وتعديلِ ما يستحقُّ التعديلَ من الحواجب والأنوفِ والنهود..

ثم مشيتُ بخيانةِ جسدي المهزومِ لي، بتوتّرِ دمي المتواري، بمحاذاة حلمٍ ما؛ ينصُّ على أن أكبُرَ وأكبُرَ وأكبر حتى أصيرَ حقاً طبيبة أبي... إنّكَ تصلُ في نهاية الأمر إلى ما أردت؛ لكن لا أحدَ يعلمُ بالأثمان..

انشر الفرح حيثما كنت، يأتيكَ الفرحُ من حيث لا تحتسب.
نجحتُ إلى حدٍّ ما في تطبيقِ تلك القاعدةِ كإحدى قواعدِ حياتي التي أصبحَتْ أكثرَ تميّزاً، وبالفعل صرت أجدُ رحابة الصّدور بشكلٍ أكبر.. وأيضاً، سامح حتى يسامحَك الآخرون فالأحوالُ تتبدّلُ بالتأكيد...

وسوفَ تركعُ أمامَ المسافات الفاصلةِ بينك وبين أشيائك.. بينك وبين أشخاصك، ثم تتوقّفُ الحياةُ على مدىً ما تستطيعه من الرّكوع.. هكذا هي طريقة العيش هناك، حيث صارت الكآبة تؤخذُ على شكلِ ترياقٍ حسب العادات الجديدة التي اتخذتها البلاد..

وما بين تلكَ العاداتِ الجديدةِ والتألّق أصبحَ الوقت يمرُّ بهدوء، لستُ حزينةً الآن فأنا في طريقي للتطوّر والتحسّنِ على كافّةِ المستوياتِ الشّخصيّةِ والرّوحية وما إلى ذلك، لستُ حزينةً لأنَّ أحدهم قد كذبَ عليَّ، إنّما تغصّ أعماقي لأنّي اكتشفتُ كذبه حتى دونما أيّ سعيٍ لذلك، سبحان من أخذه مني وردّني إليّ.. ما كنتُ أعرفُ وقتذاك أنَّ نجاحَ الضّحيةِ هو انتقام صريحٌ وفعّالٌ من الجاني...

وليأخذَ الشيءُ معناه الحقيقي، لا بدَّ من وجودِ شيءٍ آخر.. فأنا وإن ردّني الله جلّ جلالُه إلى نفسي فلا وجودَ لي إن لم أكن أشعرُ بشعورٍ ما، لذلك يومَ أحببتُ حبيبي السّابق أحسستُ بوجودي، ولعبَ الإحساسُ هذا دورَ الدافعِ للأمام، وعندما أحببتُ روادَ صارَ أحدَ مفاصلِ عودتي أيضاً إلى الوجود.. وحينما كنتُ وحيدةً مشيتُ برفقةِ شجاعتي وحزني وتحمّلي وصغيرتي، كنتُ كفريسةٍ سهلةِ المنالِ للجوع والقهر، لكنَّ المقاومةَ في داخلي كانت مستمرة... مدعّمةً بفكرتي العائدةِ من زمنِ الطّفولة بأنّي فرحةُ عائلتي وضحكتها، وربّما أكونُ فخرها! فكيف إذا بي أرتدي ثيابَ أبي؟ التي عليها رائحةُ أمي.. والتي كنتُ أجرّبُها كثيراً خلالَ غيابِهما في صغري، وتمرُّ على وجداني تلكَ المشاهدُ حينما أتوسّدُ فراشي متعبةً، مهجورةً، متألّمةً أو منطفئة..

كنتُ أبدو رُغمَ الملابسِ الرّجاليّةِ أكثرَ أنوثةً وأكثرَ شغباً، يسعدني ذلك بعضَ الشيء... الآنَ أعيشُ على ذاكرتي التي قمتُ بترويضِها وتدريبها لعدمِ استرجاعِ أيِّ شيء؛ إلّا بطلبٍ مني.. وبالطبعِ كانت جوى وخيالاتُها وعبثُها دائماً أمامي.. فأنا في نهايةِ المطافِ سأبقى أمّها، وستبقى رغمَ البعد والقطيعةِ قطعةً مني..

"And despite the distance and the estrangement, you will remain a piece of me…"

مضت الأيّامُ هكذا..، وأنا أتقدّم كلَّ يومٍ.. حتى اجتمعتُ صدفةً بأحدِ الأطّباء المهرةِ وعرضَ عليّ فكرةَ تواجدي معه في عيادته الخاصة، يعدُّ هذا العرضُ فرصةً مغريةً فهناك يحتفظُ الناسُ بأسرارٍ تدعى أسرارَ مهنة، بينما قلّةٌ هم من يقدّمون خبراتهم للأجيالِ الجديدة... وبالفعلِ بدأت خبرتي تتزايدُ أكثر، وصرت أنا في مكانه بعدما اضطرّته ظروفُه للسفر... هذا أحد الأمثلة الحقيقية التي عشتها عن تدخّلِ الله عزّ وجل في وقتٍ مناسب...

صارت حياتي بين مناوبةٍ لطبيبةٍ مقيمة بقصدِ التخصص في المركز الجديد الذي نقلت نفسي إليه، وبين ذلك المكانِ الخاصِّ بالمرضى الخاصّين أيضاً، تبلورتُ أكثر ولكن بدأتُ أفقدُ رواد، وعبر صراحته عرفتُ أنّه لن يبقى... لكنّي أحترمُه جداً، أحترمُ تعبيرَه الحقيقي، رغمَ أنّه أشعرني بشيءٍ من البؤسِ على نفسي... وللحكاية بقية..

***

لرواد حريّةُ تعبيره، ورأيُه.. هكذا اعتدنا، احترامُ الغير أولويّة، ولن أعتب على انسياقِه خلفَ المجتمع وطريقة المجتمع... فقد أصبحتُ امرأة منفصلة عن زوجها السابق، أو كما يُقال عني، مطلّقة..

منذ وقتٍ قريبٍ..، وصلَ صكُّ انفصالي إلى يدي، وقتئذٍ شعرتُ بحرّيةٍ مطلقةٍ، لأني مطلّقة! حتى شربتُ نخبَ حريّتي.. حرّيتي التي أضحت سبباً لرفضِ رواد والمجتمع لي...، هؤلاء النسوة يعانون بشكلٍ رهيب، محاطون دائماً بإشاراتِ تعجّب أو استفهام، لكلِّ ما يفعلنه أو يردن فعله..

فبعضهنّ تُركنَ بغيرِ مأوىً، ومن لاذت منهنّ بالفِرار إلى بيت ذويها، فقد أُنشئ حولَها سياجٌ يدعى بسياج سُمعة... وبعضهنّ حملنَ مسؤولية أطفالهنّ فوق خساراتهنّ المدوّية.. وهكذا، زد عليهنّ إرهاق الحياة، و وحدة الانفصال، ثم الضياع، وفقر الروح وافتقار الجسد للجسد النظير المؤنس...

سوف يبقى الأجدى أن يستطيعَ المجتمعُ احتضان أبنائه، قبلَ خنقهم لأنّ الأقدار لا تأتي مفصّلة على مقاسِ ظروفنا، يجب أن نسعى إلى حياةٍ أفضل للأفراد لا العوائل فقط، ولربما إذا فكّر واحدنا بما يمكن فعله لأجل الآخرين وفعل، لكنّا في موقعٍ مختلفٍ على خارطة العالمِ الحضاري..

"It will remain more useful for society to be able to embrace its children…"

أما أنا، فقد كنتُ متسلّحةً بشجاعتي، وبرواد، ثم بحرّيتي، وفي بعضِ الأحيانِ بحزني، حتى تقدّمتُ في تفاصيلِ حياتي سابقةِ الذكرِ... ورواد لم يتقدّم أكثر لكنّه أيضاً لم يتغيّر.. لم يهجر كما فعلَ الحبيب! عموماً تبحثُ الأُسَرُ عن العزباوات لأجل العازبين، ويُرفضُ قطعاً غير ذلك...

نظنُّ في حياتنا ما نظن، وتبدو حياتُنا كما تريد، ثم لا شيءَ يبقى كما كان... تدورُ عجلةُ الأيّامُ بعجالة مريعة، ولتشابهها وروتينها تصيرُ وكأنّك نمتَ اليوم وصحوتَ اليوم.. فقط الأرقامُ والأسماءُ تتغيّر.. هكذا حتى طلبتني أم سلمى بإلحاحٍ كبير لأقصدَها، فتركتُ ما بيدي، ثم خلعتُ لباسي الأبيضَ وأدبرت، ما خيبتها، كما فعلت معي لوقت طويل...

إن الابتئاس الحقيقي، أن يظلَّ طرفُ خيبتك يلاحقكَ مهما فعلت، ذهبتُ بنفسي إلى فاجعة جديدةٍ بدأتُ بشمّ رائحتها عندما دخلتُ بيتَ أم سلمى لأراه منهاراً بدموع تلك الأم، وتلك البنت، على سندهما الوحيدِ الظاهر بمظهرٍ مدمّى وخدوشٍ كثيرة على وجهه وما ظهر من جسده... رميتُ حقيبتي الأنثويّةَ الصغيرة على المقعد المجاور للمقعد الذي افترشه التّعب وصاحبُ التّعب..

"The real misery is that your disappointment will keep chasing you no matter what you do…"

ثم بدأتُ بطلبِ أشياءَ طبيّةٍ مثلِ المطهّرات والمعقّمات والقطن.. حمداً لله لم تكن جراحُه خطرةً لكنّها بالحتمِ مؤلمة.. وحولي سلمى تتحرّكُ ذهاباً وإياباً ثم ذهاباً ورجوعاً متمتمةً "والله لم أفعل شيء، والله لم أفعل أيَّ شيء" يبدو أنّها متّهمةٌ بالحادثة، بدأتُ أخمّن ما حدث! بينما بقيت أم سلمى محتفظةً برباطةِ جأشها...

انتهيتُ ممّا يمكنُ فعلُه لجراح أحمد، السطحيّة بأغلبها.. لكنَّ الكدماتِ تحتاجُ لبعضِ الوقتِ حتى تمضيَ في حالِ سبيلها.. وبدأتُ أفهمُ رويداً رويداً أنَّ أحمدَ قد تعاركَ مع شخصٍ آخر يدعى أمير بسبب سلمى..

هدأ التوتّرُ في ذلك المنزل البسيط، وفي أرواح أهله الطيبين... وبدأت الخالةُ أم سلمى تشكرُ مجيئي شارحةً لي أنّ أحدهم قد تقدّم لسلمى، طالباً يدها للزواج، فرفضَ أحمد أيّ شيءٍ من هذا القبيل لأنّه على غير ثقة بهذا الشخص، ولكنّ الأمور تطوّرت إلى عراك لفظي ثم جسدي..

في البدايةِ لم يلفتني الاسمُ المذكور على لسانها، لكنّها عندما قالت: "نحن شهدنا تجربتك المريرة مع أمير، ولا نريد تكرارها! " استوعبتُ أنّ المقبلَ لأجل سلمى هو زوجي السابق.. ورنّ هاتفي قاطعاً دهشة الفكرة وإذ برواد يتدخل! أما سلمى فقد جاءت بعد انتهائي من تدخّلِ رواد تستغّلُ وجودي وحيدةً في غرفتها لتخبرني أنّها لم تقترب يوماً من أمير ولم تفكّر به البتّة، كان هذا عاديّاً لكنها عندما اعتذرت عما حصل، شيءٌ ما في داخلي دفعني إليها فقمت من جلوسي على سريرها وضممتُها!

لا أعرفُ لماذا اعتذرت سلمى، لكنَّ هؤلاءِ الذين يعتذرون بلا اقترافهم للذنبِ هم أناس طيبون جداً ومرهفو الحس، أخبرتُها بأنّه لا يتوجّب عليها الاعتذارُ فهي ليست مذنبة، ولكن لستُ أتمنّى لها تجربةً قاسيةً جديدة عليها كتلك التي مررتُ بها.. فإنَّ أيّامي الخوالي مؤذية حتى القتل... كانت هذه المرّةَ الأولى التي أضم فيها غيري بإقبالٍ مني، ربّما كنتُ أحاول كسر تلك الحواجز المبنية في جوفي..

خرجنا نحن الاثنتان نحوَ الأمِّ المنتظرةِ بجانب وحيدها النائمِ على أثر العقارِ المركّن للأعصاب والذي أحملُه في حقيبتي دائماً، تقرأُ له ما تيّسر لها من كتابها المقدّس، كمن يجمعُ حبّاتِ الرمان طالباً من الله سبحانه أن يجعلها رمانة، وإنَّ الله على كلّ شيء قدير، على هذا مضت الساعاتُ مريحةً للصدور.. حتى حانَ موعدُ عودتي لمكاني وعدتُ إليه مندهشةً من مشهدنا أنا وسلمى والذي ظلَّ في وجداني..

وممّا سمعتُه من الغالي أحمد عندما أفاقَ من نومه، فقد حدّثني أحمدُ عن أشياءَ كثيرةٍ فيما يخصّ أمير وخاصّةً أنّه أحدُ أصدقائه المقربين منه، ثم اعتذر لكونه صمتٍ عن كذب أمير عليّ، قائلاً: "لم أكن أتخّيلُ أن يكذبَ بكلِّ شيء"..

واظب السؤال على الدوران في تلافيف عقلي؛ كيفَ استطاع أمير أن يفكّر بسلمى أو بالزواج منها وهو ليس بكفؤ لاحتواء قطة؟! حتى جوى عرفْتُ فيما بعد أنّها في بيت أهله ولا يهتمُّ لها... وأمّا غيابه فلم يكن استدعاءً له، أرادَ البُعد بشكل مطلق حسب تعبير أحمد، ويا ليتني لم أعرف أنَّ عمله كان على ما يرام، بينما هو لم يتحمّل مسؤوليتي بشكلٍ جيد، فقد عانيت ما عانيت من جوعٍ وحاجةٍ ومنذ الآن لن أتركها على عاتقِ أحد.. كانت الأشياءُ كلَّها مجرّدَ أكاذيبَ طُرحت على مسامعِ فتاةٍ ساذجةٍ جداً..

في يومِ عودتي، وبعد يوم متعبٍ للغاية جرّبت الاتصال على سلمى لأطمئنَّ على أحمد، وأعرفَ هل وصلت سلامُ إليهم، فقد أخبرتني أنّها سوف تذهبُ لأجلِ سلمى وأمِّها، إنّه الواجب.. لكنّ سلمى لم تجب على هاتفها، إلّا أن سلام أخبرتني عبرَ رسالةٍ قصيرة، استشفيتُ منها أنَّ شيئاً ما قد حدث...

رغمَ كونه يؤسّسُ الحياةَ اعتماداً على الدّماءِ والمرضِ والموت، يتميّزُ الطّبُّ بكثرة انشغال أصحابه ممّا يدفعهم لإهمالِ أفكارٍ كثيرة، هذه فكرةٌ مؤرقة قد سمعها الأطباء أثناء دراستهم، لكنّها أيضاً مراهنةٌ ناجحةٌ إلى حدٍّ ما، إذا عرفوا استغلالها جيداً.. وليس الطبُّ وحده، بل إنّ تلك الاختصاصات العميقة أيضاً تفعل ذات الفعل لمن يحبّها..

جاءني هاتف سلام بعدَ رسالتها بقليل، تخبرُني أنّها بقيت مع سلمى بحال أنّ أم سلمى ذهبت إلى أمير لأنّه تحت العناية الصحية، وأنّ الذي من طرف أمير قد هدّدَ أحمد وأسرته بعدَ تدهورِ حالته الصحية، ناقلةٍ عن أم سلمى طلباً بالذهاب إليها، وبالطبع فوق تأخّري أجبتها..

ذهبتُ يجرّني ذيلُ ماضيَّ إلى تلك الواقفة برأسٍ شامخ تصيحُ بصوتٍ مرتفعٍ أنّ من العيبِ تهديد الأخ للأخ...، رحتُ أفتّشُ عن الطبيب المسؤول عن حالةِ أمير، هرباً من الاقترابِ إلى مكانه، ولأنّي ذاتُ خبرة لا بأس بها استطعتُ الوصولَ للهدفِ بسهولةٍ وبدأتُ حديثي مع زميلي الذي يكبرُني بعدّةِ سنواتٍ مستفسرةً عن تشخيصهِ وأيضاً بعدَ فقرة التعارف ومعرفةِ الصّفةِ التي أمثلها بالنسبة للمريض...

فهمتُ بعدَ حديثٍ مطوّلٍ، أنّ الأجسادَ المتعبة تصبحُ أقلَّ مقاومةً للسقوط المَرضي، بينما رهطُ أمير ما أحبّوا الاقتناع بأنّ ما حصلَ له لا يمتّ بصلة مباشرة للعراك الحاصل، كان الحدثُ كبيراً بالنسبة لهم، وغريباً لأنَّ الطرف الآخر هو أحمد بالذات..

ثم عدنا أنا والطبيبُ إلى الممرّ المؤدّي للغرفة لأجدَ الخالةَ هناك جالسةً على كرسيّ الانتظارِ، متأمّلةً قدومَ طوقِ النّجاةِ الذي أكونُه، بجانبها أخذتُ مكاناً لي وسألتُها عن حالِ أمير، فأجابتني بأنّهُ جيّد، وأنّها قامَت بما يجبُ القيامُ به... ثم سألتني عن إمكانيتي لمساعدةِ أمير، فضحكت.. ضحكت على تلك الأمِّ الطيبة التي كانت تصرخُ منذ قليل، وتطلب الآن المساعدة لمن هو السببُ بصراخها ذاته..

أخبرتُها أنَّ الطبيبَ سيقوم بذلك، وأصابعي تشير إليه، لكنّها عاودت سؤالي؛ وأنت؟ فنظرتُ إلى الأرض، لكن ما سبب نظراتنا الموجّهةُ للأرض عندما نُسألُ عن ماضٍ يحرجُنا؟ هذا من الأشياءِ الغريبة، أحسَّ الطبيبُ بأنّه توجّبَ عليه الانسحابُ فاعترضتُه أنا قائلة: لا داعيَ لذهابك أيّها الطبيب...، ثم نظرت إلى الخالة أم سلمى، وقلتُ لها بأنّي لا أريدُ رؤيته بتاتاً، فحتى إذا كانَ بمقدوري مساعدتُه، إذا رأيتُ عينه الواحدة المتبقيّة وأنا داخل غرفة العمليات سوف أنسحب.. فأذهبُ لأعالجَ نفسي وأجمّلها قبلَ أن أفكّر بمعالجة أمير...

طلبتُ من الطبيبِ الاهتمام به وفقاً لدواعٍ إنسانية لا أكثر، ورجوته إظهارَ تلك الحقيقةِ التي أخبرني بها إذا طلبت منه الشرطة ذلك... ثم ودّعته ممتنّةً استقباله ومساعدته.

في لحظةٍ غريبة من العمر، نستوعبُ أنّ هذه الحياة يجبُ أن تتغيّر.. وأنّنا نحنُ أنفسَنا يجبُ أن نتغيّر، أن نمضيَ بعيداً بعيداً مثلَ من راحَ بغيّرِ رجعة، مثلَ الشهيقِ الممتلئِ بالأوكسجين، الفاقدِ للزفير..
نكتشفُ فجأةً أنّ الذي اعتقدناه من الصّواب، كان العكس، وأنّ الذي عانقناه اشتياقاً كان حبلَ إعدام! نكتشفُ أنّ الحياةَ أكثرَها وهمٌ.. وأجملُها الوهم... وأنّ لا شيءَ قبل النجاح..

"We discover that most of life is illusion. the most beautiful thing of it is the illusion. And that there is nothing before success…"

أردتُ ارتداء ثوبِ الضحك عندما كنتُ صغيرةً، حتى أنّي سألتُ بعضَ زوّارنا ببراءةِ الأطفال؛ هل أجدُ لديكم ثوبَ الضّحك؟ أتمنّى اليومّ أن أعودَ إلى ذلك السؤالِ طارحةً إيّاهُ بتلك البراءة، ياه لو كان باستطاعتنا العودة إلى تواريخنا القديمة، إلى الاحتفاء بمرورِ أناسٍ يصدحون بالأغاني ولو كنّا على شرفةٍ بعيدة، إلى تاريخ الاندفاع غير الواعي والسذاجةِ والفرح، الفرحِ بأيّ شيءٍ رغمَ بساطته..

حُلَّ النزاعُ بين الصديقين بواسطةِ العقلاءِ من الأصدقاء، لكن بعدما انكسرَ شيئاً ما لا يمكن له أن يعودَ كما كان، بيد أنّ ما لفتني في تلك الحادثة ككل هو كلامُ أحمد عن أخته سلمى، والذي يتّضحُ فيه فهمُه العميقُ لأفكارِ مجتمعٍ معاقٍ بالفطرة! ومنها أنّ الانفصال ونعتَ الناس لها بالمطلّقة لن يؤثران على حياتها، لن يجعلانها لقمةً سائغةً لشخص عُرِفَ بمعاملته السيئةِ للزوجة.. حينها استدارَ لأخته مبتسماً متسائلاً؛ ألن تكملي الحياةَ معنا أيّتها الصغيرة الكبيرة؟ وبالطبع أجابته بطريقة أنثوية فتّانة، حيث وضعت من يدها فنجان الشاي المحلّى وقامت إليه معانقةً فيه روحَ الأخِ السند...

لكنّ أمير لم يجد لتخبّطاته حلاً، بل عندما عادَ إلى عافيته حاولَ إصلاحَ ما بيننا، فواجهَ أبي والذي رفضَ عودتي من تلقاءِ نفسه، ثمّ رجعَ إليّ يخبرني بذلك، حيث قد تحسّنت علاقتُنا جدّاً وصارَ أكثرَ ثقةً بي وبخاصة بعدما بدأتُ العمل بشكلٍ أكثرَ تناسقاً..

وإنّ الله منّ عليّ بعلمٍ وقدرةٍ ومحبّةٍ رأيتُها كثيراً في وجوهِ الناس، فسبحانَ من أخذهُ مني وعوّضني بما لا أنساه ما حييت، صار عملي بين اختصاصي والعيادة الخاصّة التي وثق بي طبيبها، يأكلُ كلَّ وقتي، حتى ما عدتُ أذكرُ نفسي البتّة.. بينما بقيت ذاكرتي تركلُ طريدها إلى خارج حدودِ هوامشها كي لا يلتفتَ إليه قارئي أبداً...

سرتُ مع كلِّ أشيائي وانشغالي حتى أتممتُ خدمتي وصرت على أبواب امتحانٍ نهائيٍّ أُنهى فيه السنةَ السادسةَ والأخيرةَ من عمر التخصّص، أغلبُ ما تعرفونه لم يتغير، إلّا أنّني والرزق من عند الله استطعتُ شراءَ سيارةٍ بسيطةٍ تخدمني، وبدأتُ أفكّرُ بشراءِ منزلٍ صغير، كما أنّني تبلورتُ أكثرَ كطبيبةٍ وجرّاحة تملكُ ما تملك من أنوثةٍ ونعومة..

وجوى، ياه لو تستطيعون رؤيتها! كبرت جدّاً كجدّها العزيز، أظنُّ أنّ عائلة زوجي السابق كانت تعتني بها جيداً! كلُّ ما مضى من وقتٍ وأيّام، كنتُ أراقبُ حسابَ أمير على مواقع التواصل الاجتماعي، كذلك أفرادَ أسرته، فأراها بين الفينة والثانية.. وبالطبع كنا نلتقي عند زيارتي لقريتنا الصغيرة التي ما هجرها أهلها رغم قسوةِ الظروفِ التي عاشوها ويعيشونها..

وبصحبتها كنتُ أذهبُ لكوخِ البيتزا العتيق، وبعيداً عن تناولِ قطع البيتزا الشهية، أتأمّلُ تلك الجدران الشاهدةَ على قصتي، وذاك الأثاثَ البسيطَ الذي لاحظ الكثيرُ من الشبابِ والشاباتِ أمثالي وربّما عاين قصصهم ونهاياتها أيضاً.. كانت جوى تتناولُ البيتزا المصحوبةَ بالبطاطا المقلية والكاتشب بمتعةٍ كبيرة، كأنّها على علمٍ بأنّ هذه البيتزا بطعمِ العِناق..

أما سلام، فقد اجتازت هي الأُخرى مراحلها الجامعيّةَ بنجاحٍ وتقدّمت في تخصّصها.. لم نفترق ولله الحمد، كذلك بما خصّ تلك العائلةَ البسيطة المدهشة، عائلتي الثانية، لك أن تتخيل يا عزيزي أنّ الدهشةَ تكمنُ في تلك البساطة، في سيرِ خطواتك الناجحة دونما توقّفٍ أو ميلان، في كلمةٍ عطوفة تأتي من غير موعد، أو صحنِ حساءٍ دافئٍ معمولٍ بحبّ كبير...

وتطوّرَت علاقتي بأحمدَ الهادئ الواعي، أحمد الرجل الذي شككتُ به في داخلي ثم تأكّدتُ من عفويته، أحياناً يجعلك الاقتناع بالعفوية أكثر اندفاعاً للهدوء، فتصفحُ وتسامحُ دون شروط، ومن حولك تتدافعُ الأيّامُ مثلَ نسماتِ الرّيحِ في شهرِ تشرين، تأتي باردةً لاذعةً وممرضة...

وبقي عندي الخوفُ من البقاءِ وحيدةً، بل انتعشُ حتى أصبحَ؛ من الموت وحيدةً.. تنمو الأفكارُ التي تعيشُ في داخلنا متغذّيّةً علينا، بعضُها يحوّلنا إلى حماماتٍ والبعضُ الآخر يحوّلنا إلى صقور، إنّها بهذهِ القدرة وهذا التأثير..

"The thoughts that live inside us grow and feed on us…"

ثمّ أثناءَ التّحضير للامتحان العزيز ذهبَ عزيزي السابق إلى حيثُ ما عادَ بالإمكانِ للعود أن يكون محمودا... تبدو حياته هناك في العالم الآخر الذي بات على معرفةٍ فيه، أفضلَ من حياتنا هنا..
في تلكِ الأثناءِ ينفردُ أولادُ الطّبِّ بأنفسهم ليجلسوا خلفَ طاولاتِ الدّرسِ فتراتٍ طويلةً جداً، يتحضّرون لحدثٍ يشكّلُ علامةً فارقةً في حياتهم المهنيّةِ والاجتماعية، وأنا كذلك أنتمي لتلك الفئة، لهذا لم يصلني الخبرُ في موعدهِ الحقيقيِّ الذي يسبقُ موعدي بيومين فقط لا أكثر..

إلّا أنّ الخبرَ تشايعَ وانتشر، أعرفُ اليوم أنّ الجميع كان على علمٍ إلّا أنا! لكن لا أبغضُ ذلك، إنّما الخلافُ هو على ضرورة تواجدي وهذا من الواجب، أو انعدام جدواهُ أمام عائلة نكّلت بروحي، أخبرني أبي أنّه قام بما يجب القيام به على أكمل وجه، والآن ماذا عن جوى؟

تلك الصغيرة التي لا ذنبَ لها بجحودِ أبيها، وعنادِ أمها بتوّقيها للحبّ والحياة، شجنُ تلك السريرة بمثابةِ خنجرٍ مزروعٍ داخلَ لحمِ الفرح، الفرح الذي أكونه وأكوّنه أنا بعد انتهائي من التخصّص بكفاءةٍ الجيد جداً...

وبينما أرتّبُ أموري داخلَ العاصمة التي أصبحت خاليةً من أغلب توجّسها، ناويةً على زيارةِ الضيعةِ العتيقة المتألّمة، بدأ الكلام يدقُّ مسامعَ قلبي.. أين هي الكلماتُ المناسبة التي تقالُ في خطبٍ كهذا الخطب؟ أيّ عيشٍ هذا الذي يكونُ عليه عيشُنا ونحنُ في حالةٍ دائمة من هيعة الدنيا؟!

ضحكتُ جداً، لأنّي السببُ المؤدّي لوفاةِ أمير الشهم، أخبرتني أمّي بأنَّ اسمي يتردّدُ فوقَ أفواهِ الكثيرين من أهلِ قريتنا والقرى المجاورة، كفتاةٍ ظالمةٍ علّقت ذاك الشابَّ البريءَ ثمّ قضت عليه بضربةٍ أنثوية جبّارة..

متى تُعتق نساءُ بلادنا من أمثالِ هذهِ المطاردات؟ من سيلِ تُهمٍ يحاولُ إثباتَ جرمِها وانجرافِها حيثما الحياة غيرُ المرضية للخالق والخلق! متى تجدُ الواحدة منّا أسناد الحياة لا الرأسَ فقط، أو نظرةً عطوفةً تنتشلُها من أمواجِ العمر دونَ رغبةٍ بسريرها!؟ بالحقِّ متى...؟

"When will the women of our country be freed from such pursuits? From a torrent of accusations trying to prove them guilt..."

تدعوك تلك الخطوبُ للتفكير في الحياة، ثمّ لأخذِ نفسك على سبيل المقارنة والتي تنتج غالباً نتائجاً مأساويةً على الصّعيدِ الشخصيّ، لأنَّ الأدمغةَ البشريّةَ مثلُ أن تكون ميّالة للحزن أو الشعور بالنقص... لكنّك سوف تكتشفُ يوماً ما أن فرحة نجاحٍ تجعلك أكثرَ تميّزاً، وا حسرتاه على أحلامٍ رفضَها الواقعُ وحقّقتها ألعاب فيديو..

بجوارِ نافذةٍ مليئةٍ برذاذِ ماءٍ جاءت السماءُ به، جلستُ أتناولُ كوب الشاي الرائق، لعلّه يعدّلُ لي مزاج جسدي في ليلة شتوية غزيرة البلل.. الآن أجلسُ جلوس الطبيبات بروحٍ لا يتجاوزُ عمرُها عمرَ جوى الصغيرة التي أصبحت تعيشُ مع جدودها، أو أكبرَ قليلاً كي لا أبالغ..

جلستُ محاولةً لملمةَ أشلاءِ ذاكرتي المبعثرةَ هنا وهناك، ما بينَ احتفالي بإنهاءِ التخصّصِ وبين قصّةِ حبّي الساذجةِ التي جعلتني أكثرَ يقيناً بأنّي فتاةٌ سوفَ تعيشُ حياتها معذّبةً، بسببِ التعلّقِ غيرِ المنطقي..

لكن كنتُ أتألّقُ، مثل شَعرٍ ملفوفٍ بعروقٍ من الوردِ والريحان، يُصبُّ على جسده شبه العاري ماءً ساخنة لا تغلي، فيقفزُ في الهواء كراقصي الباليه، ويدورُ يدورُ كثيراً على أنغامِ موسيقاه... بينما رواد ابتعد عن تلك الموسيقى، صارَ على مسافةٍ فاصلةٍ وثابتةٍ بيننا، أيعقلُ أن يكونَ أولادُ آدم لديهم من الهجرانِ شيءٌ داخلَ عروقهم؟ وذهبت سلام إلى حياتها أكثر، فقط بقيت صديقةً شديدةَ الوفاء، تتفاخرُ بصديقتها حَرير..

وإنّ من أحبّنا لغايته، تصيّرهُ قلوبنا مجرّدَ ذكرى، ومن أحبّنا في الله فإنّا تالله أوضعناه على الجفن، وقسمنا له من الروح.... فلنكن نحن أمن أنفسنا أكثر، ولو غرقنا بين أفاعي الوحدة، لأنّه ما نحسّه سيبقى أكبرَ من أن يُكتبَ على حفنةِ أوراقٍ نحتفي بها وتحتفي هي الأُخرى بنا، أحياناً أكبر حتى من إيجاده على وجه الأرض..

لم أذهب بعدَ ذلك لزيارةِ أهلِ أمير، بل كنتُ فقط أعزّي جوى كلّما رأيتُها وتقومُ أمّي أغلب العمر على رعايتها، ثم صارت الشتائمُ تتعقّبُ خطواتي، لأنّي الأمُّ التي لا رحمة فيها! يا له من عالمٍ قاسٍ.. وكيف لا أثقُ بأنّها ستكون دائماً على ما يرام؟ إنّها تحت رعاية أم حنون... إذا شعرتَ بالثّقل يوماً، فقل الحمد لله إنّما أكتافي من عِظام السماء.. فوالله إذا رآك ربّك صادقَ السعي لمدَّ لك الطريق كما لم تتخيل لحظةً.. كما فعل معي، حين أنزلَ رزقَه عليّ، وغيّرني من حالٍ إلى حال...

***

وأعرفُ أنّني سأبحثُ عنك كثيراً دونَ أن أجدك.

"I know that I will search for you a lot without finding you.."

كبرت تلك الصغيرة، صارت تقرأ وتكتبُ وتفكّر ولها ردّات فعل، نما جسدها النحيلُ بشكلٍ لائق، بينما هرمَ رأسُ الهرم في عائلتي، وصارت التجاعيد كلَّ وجهه، وعلى وجهي أيضاً علامةٌ فارقةٌ أحاولُ اللحاقَ بها دائماً لتغييبها، حيثُ أضيفُ على عمري الكثيرَ من السنوات..

سلمى أيضاً تغيّرَ شكلُها فقد أجريت لها بعض التعديلات التي أحبّتها، أصبحتُ طبيبة معروفة على مستوىً راقٍ، وترافقني جوى بأوقات كثيرة في عيادتي الصغيرة، عيادتي التي تكوّنت بفضل أولئك الأطباء الذين سلّموا لي الكثير من العمليّات لأقومَ بها، وهم شركائي حتى اليوم.. سوف يبقى الخيرُ على وجوده حتى ولو أعلنَ الشر الانتصار...

أما خالتي أم سلمى فلم ترضخ لتوسّلاتي كي أقدّمَ لها ما استطعت من الفائدة، إلّا عندما أخبرتها أنّي سوف أهاجرُ عن البلاد إنْ هي خيّبتني، حينها قالت لي: "افعلي ما شئت بهذا الجلد بنيّتي، فقد أكلَ منه العمر الكثير".

جعلتهنّ أختين أكثرَ من كونهما أم سلمى وسلمى... لكنَّ الصّاعقة التي نزلت على أحمد حينئذ، كانت تقدّمَ أحد الرجال للخطبة طالباً يد أم سلمى، بينما ظلّ أحمد يظنُّ أنّه آتٍ لأجلِ سلمى حتى تكلّم.

وفي تلك المرحلةِ تصبحُ الحياةُ أكثر بساطةً، تدركُ خلالَها أنّ الثمنَ يفوقُ أو يعادلُ الشيء، على أقلِّ تقدير.. فحياتي الطبيّة لم تكن بتلك السهولةِ المذكورةِ خلالَ ما كتبت، إنّما هي تفوقُ كلَّ ما يمكنُ أنْ أجنيه منها، حيثُ لا يمكنني عدُّ اللحظاتِ التي انهارت فيها قواي وأعصابي، والمرّات التي جلستُ فيها على أيِّ أرضٍ رأيتُها في أيّ مكانٍ مسندةً رأسي على أيِّ جدارٍ قريب.. ولا حتّى المرّات التي كنتُ على حافة ترك الطب كلّياً والهربِ حيثُ لا طبَّ قد وجد..

"I can't count the moments when my strength and nerves collapsed..."

إن الله تعالى فقط، يمكن له إعادةُ ما خرّبته الحياةُ والأيدي، وأمّا الأطباء فهم وسيلةٌ، ربما ينجحون وربما لا... هذه حكايةٌ معقّدةٌ للغاية لا يجرؤ الجميعُ على استيعابها أو لا يمكنُ ذلك للجميع، هذا أيضاً ينطبقُ على كلِّ شيء في الحياة، لأنَّ الإنسان خُلقَ ليكونَ تحتَ عسرٍ ويسر، وإنّ الأمانَ بالربِّ فقط.

الآن بدأ تساقطُ الثلوجِ على المدينة، لم يأتِ هذا الثلجُ لمدينتي مذ بدأ عمري أو أكثرَ بقليل، شابٌّ يترجّى فتاةً أظنُّها فتاته، لالتقاط صورةٍ تجمعُهما معاً، وهي ترفضُ بشدّةٍ، السيارات تتحرّكُ ببطءٍ شديد، هذا أفضل، والأصدقاءُ بدؤوا بجمعِ كرات الثلج على قلّته.. جالَ في خاطري رواد، الحمد لله أنّه لم يذهب، لكنّه يغيب كثيراً، يجعلُنا التعلّقُ أكثرَ تمسّكاً ولا ندري لمَ؟!

ثم أمير، أمير يذكّرني بملك العربِ أيامَ غرناطة، يوم دخل فرناندو ملكُ النصارى قصرَ الحمراءِ في غرناطة يسبقه الرهبان، وجثا أمامه ملك الدولة العربية الإسلامية آنذاك ثم قبّل يده! في مشهد مذلٍّ للغاية كان أبرزَ أسبابه قلّةُ العقلِ والتخاصمُ فيما بين العربِ أنفسهم، وما بين العائلة الواحدة، وحينها قيلت لهُ الجملةُ المشهورة بعدَ صورةِ الذّل تلك، بعدما بكى: "أن ابكي كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال." ذهب أمير نتيجة تهوّره بكلِّ الاشياء..

بينما يبقى الحبُّ يا سادتي مقامرةً على أشياءَ يحدّدُ القلبُ عمقَها لا إرادياً، وبالخاصّةِ التجارب اليافعة... وتدورُ الدنيا ثم تنقلبُ رأساً على عقب، تعودُ فتدورُ ثمّ تنقلب، أصبحتُ أرفضُ فكرةَ الزّواجِ عن بكرةِ أبيه، رأفةً بالآخر، فلا يمكنُ لرجلٍ التزوّجُ من فتاتين متعاكستين تماماً هما أنا التي نجحتْ، وأنا التي دُمّرت.. هذا ما قلته للدكتور سامي الذي عالجَ أمير سابقاً، ثم كتمَ إعجابه احتراماً للزّمالة وظناً أنّ أمير يخصّني... حقاً، إنّما الحياة أخلاق..

"Really, life is morals.."

أما الضّيعة فلم تترك تلك اللّيلة الباردة إلّا وقد أخذت حصّتها من خواطري، ففيها الذين تحدّثوا عن حَرير يومَ غادرت، وهم الذين يتحدّثون الآن عما فقده أمير رحمة الله عليه وعلى قلب أمه وأبيه، والسؤالُ المتردّد على أفواههم؛ أنْ كيف فعلت كل هذا؟

قمتُ من حيثُ جاورتُ نافذتي وعيوني مليئةٌ بدمعٍ شافٍ عليه انعكاس بلون الثلج، لأطمئنَّ على جوى المستلقية في حضنِ فراشٍ من الحرير والدفء، أرتّبُ الأغطيةَ من فوقها وأمسّدُ شعراً يشبهُ السّنابلَ الذّهبيةَ الملتفّةَ كطوقٍ حولَ وجهِ البدر، جوى التي مذ عادت إلى أحضاني تقبّلني بطريقةٍ غريبةٍ مثيرةٍ للدهشة! حتى جاءت إليّ معترفة أنّها على علمٍ بما قاسَت أمُّها من عذابٍ أليمٍ.. ياه.. لقد مضت السنون بسرعة..

كانت لحظةً صادمةً جداً، أن كيفَ لتلك الصغيرة أن تعلمَ أو تتذكّر؟ يا خيبتي إن كانت تذكرُ أياماً جاعت فيها... لكنّها أردفت؛ يا أمّي كانت جدتي أم أمير تخبرني بكلِّ شيء، كانت تحبّك كثيراً وتلومُ ابنها، وتكرّرُ كثيراً أنّ كلّ الأشياء تعادُ لأصحابها. يا لها من مفاجئة!

تركتُ جوى في غرفها، ودخلت لمطبخي الصغير أعدُّ قهوتي، لي ساعةٌ ليلية أبذلُها مع نفسي، أرتّبُ فيها رفوفَ جراحِ العمر، وأسكّنها، أتفقّدُ ضمّاداتها وأماكنَ الآخرين وذكرياتِهم، ثم أجرّبُ الاسترخاء وأخفقُ ككلِّ ساعة ليلية حاولت فيها قبلئذ..

وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى عملي، بسيارتي الخاصّة بعدما أوصلت ابنتي إلى مدرستها، وأجهدتُ روحي لأستيقظَ بعدَ ليلِ الهواجسِ والتبدّلِ بين الميمنةِ من الجسد والميسرةِ والظهر.. أرتدي ملابسي الأنيقةَ التي يطلُّ من خلالها كتفي أحياناً وبعضُ نهدي أو ساقي أو الرّكبة، فوقَ كعبٍ عالٍ أسيرُ فيه برشاقةٍ تامّة... كلُّ من يمرُّ بمحاذاتي يبتسم، أزورُ بدايةً غرفَ المرضى الموزّعة على طوابقَ متعدّدةٍ، وحالاتٍ مختلفة، ثم أجلسُ في غرفة الأطباء أرتقبُ انفكاك جوى عن مدرستها.. وهكذا...

كنّا نجتمعُ أنا وسلمى وسلام مصطحباتٍ جوى أغلبَ الأحيان، في مطعمٍ ما، أو مكانٍ يقدم لنا ما نحتاجه، ونكرّرُ ذلك على الأقل كلَّ خميس، كانت جوى تنفق وقتاً ليس بالقليل في تأمّلنا نحن الثلاثة، لاحظتُها مراراً كأنّها تبحثُ عنّا، أو تنتظرنا لنتوقّفَ عن الكذب بأنّا بخير.. يا لها من فتاةٍ شقيّة.. كذلك نذهبُ في الأيّام المناسبة للقرية الساحلية التي تشكّل مسقطَ رأسي..

وخلالَ إحدى زيارتي لضيعتنا، وبينما يبدو أنّنا كبرنا للغاية نحن والبلاد والأرضُ التي شاخت لكثرةِ ما شربت من دماءِ أولادها، صادفتُ أمَّ أمير وحدّثتني بعدما عانقتها جوى، عن حياتي وغيابها أثناءَ الفتراتِ العصيبة التي مرّ عبرها زواجي..

فهمتُ أنّ بعض النساء لا يستطعن فعلَ أيّ شيءٍ أو قولَ أيّ قول، اغرورقت أحداقها بالدمع قائلة: "كنتُ أفرحُ بكلّ خبرٍ سارّ عنكِ، وأقولُ بيني وبين نفسي قد أحسنَت ففعلَت ما لم يستطع عليه غيرها منّا" وختمتْ: "سامحيه يا ابنتي"

أحسستُ بشيءٍ عظيم، إنّها امرأة طيبة بعيداً عن صلة قرابتي السابقة بها.. وستبقى دائماً أحدّ الأجزاء التي مرّ عبرَها عمرُ ابنتي..

حقاً بعضُ الرّجالِ على هذا الحالِ في القمع والبروزِ على حسابِ نسائِهم اللاتي لا قوّةَ فيهم.. إنّهم يجرّموننا لأنّنا نكشفُ عوراتِ عقولهم، وعوراتِ ماضيهم وحاضرهم، بينما يتركّزُ اهتمامهم على عوراتِ أجسادِنا فقط، ثمَّ يشعلون اللهبَ تحتَ عقولنا حتى تتعرّى وتتعوّر.. أما أنا فأنتمي لمن أُوقدت النار بكلّها وكلِّ ما فيها..

لكن ومهما تكن الأسبابُ لا أستطيعُ من داخلي غفران جرم العائلة تلك، حتى وإن أجبر أحدهم على السكوت، لا أستطيع التقبّل يا أمي، لأنّ الغضبَ الكامد في حشوتي لن يسمح لي أبداً.. وسوف نكملُ قصّةَ عمرنا حتى يتلقّى العمر الأمر أنْ انتهِ...

ولأنّ الواثقين بأنفسهم لا يعيبهم انعدامُ حسِّ الغيرةِ لديهم، أهملَ رواد تلك الجزئيّة التي لطالما أحببتها أنا وأترابي من النسوة، لكنّه سيبقى الأفضلَ من الذين قابلتُهم في حياتي فقد لعبَ أدوار الخليل والنديم والسمير ببراعةٍ دون نكث..

"بالطبع سوف ننجح!" هكذا أجبنا الخالة أم سلمى عندما طلبت منّا إقناع أحمد بالزواج، أحمد الذي يرفض تلك الفكرة لأسبابه الخاصة، وإنّه على حق، أيُّ مستقبلٍ هذا نودّ صناعته ونحن ننتقل من معركة إلى أُخرى بلا مسافةِ التقاط الأنفاس..

حالُ أحمد هذا هو حالُ الكثيرين ممّن ذهبوا ليدافعوا... بينما المقطعُ النظير من الأحوال هو حال أمير... وما بينهما كومةٌ من الضائعين المنتظرين..

صار للفقدان غرفةٌ من غرف القلب لدى الناسِ كلّهم، ومزّقت الحدودُ المرسومةُ على الخرائط لتفصل الكرة الأرضية عن نفسها، الكثيرَ من قصص الهوى، محوّلةً إيّاها إلى هجرانٍ طويلِ الأمد.. سافر أخي طلباً للعيش الكريم وأملاً بتأمين دفءِ ذاك الكهل الذي أفنى حياته كلَّها لأجلنا حتى نفد منه كلُّ شيء، فأجلسه التعبُ بزاويةٍ من زوايا البيت يحدّق في الشارع الطويلِ ذاته، يفكّرُ بخوفٍ ممّا قد يحدث هنا، عند وصولِ الغد.. فالجميع من بني بشر يحملون على بعضهم البعض، ويحمّلون بعضهم البعض مآسيَ وذنوباً وصقيعاً..

سلمى ودّعت أم سلمى لخوضِ تجربةٍ جديدة بعيدة عن طهاةِ لحمِ الإناث فجعاً وطمعاً، فصارَ حالُ أمي وأمّها كحالِ عصفورٍ ذهبَ يلملمُ الطعامَ حتى عادَ به، فلمّا عاد به لم يجد أهلَ المائدة، وانتظرَ مغرداً حتى تقطّعت حبالُ صوته، واختفى التغريدُ إلى الأبد... وعادت سلمى، نعم؛ بهذه السرعة، فإنّ ما تهرب منه يأتيك أينما ذهبت!

سلام أدركت أنّها في كلِّ الأحوالِ سوفَ تكتشفُ خيانةً ما أو ما يأتي على شكلِ خيانة، لأنّ ما نجده هو حتماً ليس كما تمنّيناه، فالمثالية ليست هنا على الأرض ولا هي بين البشر...

أمّا أنا فأستقبلُ المرضى وأصحابَهم، وكعادتي أفكّ قُطَبَ هذا الجرح، وأمدحُ تلك الفتاةَ لأقنعها أنّ خلق الخالق أجمل لكن دون جدوى، وأطبطبُ على ثالثةٍ لعلّي أطمئنُ خوفها من إبرِ بنجٍ مسعاها أن تخفّفَ حدّة الألم... من المرهق أن تكونَ الطبيب، وتبحثَ عن ترياقِ حياتك المفقود عبثاً...

"It's exhausting to be a doctor, searching in vain for the antidote to your lost life..."

كاتمةً لكلّ أسراري، مبتسمةً متألقة أمام الجميع، أكملُ رحَل أيامي، فأشيائي الخاصّة والشخصيّةُ أخبرُ بها أصدقائي، أصدقائي الذين لا وجودَ لهم إلّا خلفَ شاشاتِ هواتفهم... أو عائلتي؛ عائلتي التي فكّكتها الحربُ، وعبثت بأصالتها وأصولِها المصلحة.. أو أحتفظ بها لأجلِ بيتي، بيتي الذي أصبحتُ أهربُ منه طمعاً بالدفءِ والأضواءِ والرّفاق... لكنّي ما هجرتُ أحداً إلّا وكان هجرُه هو السبّاق على هجري...

"But I have not deserted anyone except that his desertion was the first to desert me..."

في ذلك اليوم، وبينما مريضتي على سرير الأطباء مستلقيةٌ، وأمسكُ أنا محقنة التخدير المرعبة كعادتها، واضعةً إيّاها على جلدِ وجه المريضة، تقتحمُ علينا الغرفة جوى وهي تغنّي، تضعُ حقيبة مدرستها بجوار كرسيّ المكتب ثم تجلسُ عليه لتحتضنَ ذقنَها براحتيها، وتوجّه لي نظرها مستهدفةً إيّايَ بتركيزٍ عميق، وتسألني: "يا أمي ما هو الحب؟"

"She asks me: "Mom, what is love..?"

فأرفعُ يديَّ عن ذاك الوجه وكأنّي أرمي ما فيها إلى الجهة الأخرى بحركة استسلام، فتسقط من يمناي المحقنة مرتطمةً بالأرض ارتطاماً قاسياً أرعبَ صوته المريضة، وأقفَ بجمودٍ رهيب، ترفعُ جوى رأسَها مصحّحةً جلوسَها بحركةِ مجرمٍ يمسكُ بكلتى يديه قضبانَ المحكمة...

أكثرُ من مجرّد فزعٍ أو خوف، هو ما أثاره سؤال ابنتي الذي سألته لنفسي قبلَ سنوات كثيرة، قبلَ ألمٍ ضخم، قبلَ أن أبيع جزءاً من عمري غيّرني، ولم أعد كما كنتُ قبله أبداً، لكن دونما ثمن... اعتذرتُ من مريضتي على أن نكملَ في وقتٍ لاحق، وجلستُ مع جوى دون أيّ تغييرٍ يذكر، إلّا اللون الخاطفَ الذي أخذَ وجهها من لونه الطبيعي، متسائلةً عمّا حدثَ بتعجّبٍ ورهبة...

خرجنا معاً من العيادة بعدَ تعليماتٍ تلقّاها مكتبُ الاستقبال بإلغاءِ مواعيدِ اليوم، وتأجيلِ مواعيدِ الأسبوع بالكاملِ لوقتٍ لاحقٍ، ركبنا بسيّارتنا ودار المحرّك بضجيجٍ عالٍ محاولا تغطيةَ أصوات قلبي، بينما تنظرُ إليّ ابنتي مقترحةً الاتصال بسلام وسلمى والخروجَ معهم، وهي تسألني: لكن ما بكِ يا أمي؟

تبدو جوى أكثرَ حناناً من أمها وأبيها، تحبُّ الموسيقى الهادئة، والتأمّل أثناءَ ذلك، تفوّقَت في سنواتها السّابقة، تحبُّ صعودَ المنصّات، أخذت مني لونَ عيوني، بينما استولت على روحِ والدها، يحزنني جداً أنّها تعذّبت معنا كثيراً بلا أيّ ذنبٍ ارتكبته كما أسلفت، وكما هو حالُ الكثيرين من أمثالها...

أومأتُ لها بالقبول فأشرعتُ بذلك وأسّستُ للقاءٍ قريبٍ على أن نسبقهم نحن.. ثمَّ بدأتُ بالمسير مجيبةً إيّاها؛ ألا شيء يا عزيزتي. مشاهدة لكلِّ تلك الحياة التي مررتُ بها وكأنّها شريط فيديو بدأ عندما دخلت إلى الصيدلية ووقفتُ بجانب ذلك الشابِّ الأسمر حينئذ، إلى كوخ البيتزا التي هي بطعمِ عناق، ثم ليالي القلق، الأستاذ، والحبّ والخيانة، إلى الهجران وجدران بيتِ أم سلمى الشاهدة على العذاب مع ازرقاق الكثير من أجزاء جسدي، وسؤالي الآن عن جوى؛ عما ستعيشه وتكونُ فيه، والدمعات المتمددة على خدودي...

آخر ما أتذكّره بحقّ عن تلك الساعة، هو صراخ جوى وهي تقول: انتبهي أمي انتبهي.

"The last thing I really remember about that time is Jawa screaming and saying: Watch out, Mom, watch out…"

- سلام: مساء الخير سلمى، كيف حالك؟
- سلمى: الحمد لله، أأبدو جميلة؟.

- سلام: نعم أنت كذلك كلّ ليلة.
- سلمى: أشكرك؛ وأنت كيف حالك؟.
- سلام: لا بأس، لكن المواصلات هنا مرهقة دائماً، تبدين وكأنك تحاربين.

- سلمى: بالفعل، هي هكذا.
- سلام: لذلك تأخرت حتى وصلت.
- سلمى: لا بأس، إن حَرير لم تصل بعد.
- سلام: يا إلهي لقد تأخّرت أكثر مني.
- سلمى: لا بدّ من وصولهم الآن!.

- سلام: سوف أتّصل بهم، لقد أقلقني صوت جوى كثيراً.
- سلمى: نعم أنت على حق، لقد سألتها هل هنالك شيء، فأجابتني بأنّها لا تدري!.

- سلام: هاتفها مغلق، ألم تخبرك جوى بشيء آخر؟.
- سلمى: لا، أرادت إنهاء المكالمة بسرعة.

- سلام: هاتفها مغلق مرة أُخرى.
- سلمى: سوف أتصل بجوى.
- سلام: هيا، بسرعة.
- سلمى: هي الأُخرى هاتفها مغلق.
- سلام: أين هنّ؟.

يظهر على شاشة التلفاز هذا الخبر. فتلاحظ سلام ثم سلمى بعض التفاصيل الخاصة بسيّارةٍ كانت يوماً ملك حرير...

خبر عاجل: حادث سير مروّع في أحد شوارع العاصمة حدث قبل قليل، أسفر عن عدة ضحايا بين قتيل وجريح... نوافيكم بهذه الصور من مكان الحادثة.

BREAKING NEWS: A horrific traffic accident occurred on a street in the capital a while ago, resulting in several casualties. Here are these photos from the scene.

قارئـي العزيـز.. شكـراً لوصـولـك إلى هنـا..
كـل المحـبّة..

من الآن وحتى **نلتقي** في القادمات.. **إلى لقاء.**

علي مكـيه .. شبـاط ٢٠٢٢

صدر سابقاً لِــ علـي مكيه :

- **أوّل أوكسيد الحب.. ٢٠١٩**
- **أحببتكِ في دمشق.. ٢٠٢١**
- **أفــروديــتْ... ٢٠٢٢**

كنتُ أنامُ كثيراً لأنقذَ نفسي منَ الحياةِ! لا شيءَ يُعجبني، لا شيءَ يدفعُني.. ركودي طغى على كلِّ شيءٍ، واللّامبالاةُ أصبحتْ أساسَ تعاملي مع كلِّ شيءٍ.. حتّى جداري الأسود بدأ سواده آنذاكَ.. وكعادةِ السّنواتِ لا شيءَ يستطيعُ إيقاظي بعدَ أيلولَ إلّا اتّفاقُ كوانينَ على إمراضي.. كنتُ أنامُ كثيراً لأنقذَ نفسي منَ الحياةِ!.

علي مكيه

قلبي علينا

د. علي مكيه

الطبعة الأولى

9 789933 010348